1103

HARLEQUIN

١٠٣

دار م. النح

عبير

رجل من صخر

راشيل فورد

www.elromancia.com

مرمورية

رجل من صخر

راشيل فورد

كانت عودة زاك ترانشارد تعني المتاعب.

هذا كان بالنسبة الى تامسن وستماكوت، جارته. لقد كانت شغفت به حباً، ذات يوم، كما كان شأن فتيات أخريات، وقد تركهن جميعاً بقلوب محطمة.

ويبدو الآن أن زاك كان يسعى وراء أرضها، ولكن تامسن، هذه المرة كانت مصممة على افشال خطته هذه، فهي لن تسمح له بتدمير حلم آخر من أحلامها. انها ستريه ان تلك الطفلة الحلوة الطباع التي كان أذاها يوماً، قد أصبحت الآن بصلابة المسمار.

فلماذا تصبح افكارها الآن مسرحاً للفوضى والارتباك والرغبة، وذلك كلما واجهت هذا الرجل الذي هو قُدّ من صخر؟

سوريا: ٦٠ ل.س - الكويت: ٧٥٠ فلس - البحرين: ١ دينار - قطر: ١٠ دراهم - السعودية: ١٠ ريالات - الامارات: ١٠ دراهم - الاردن: ١.٥ دينار - المغرب: ٨ درهم مغربي - سلطنة عمان: ١ ريال - تونس ٢ دينار

(نظرت إليه تامسن وقد تملكها الإضطراب)

قالت: «حسناً، ليس هذا سبباً يجعلك تجيء إليّ، على كل حال.» وشعرت بوجهها يتوهج وهي تتكر ما كان جرى بينهما، وتابعت بسرعة تقول: «كان نلك فقط المرحلة الثالثة من التمهيد لما تريد، أليس كنلك؟ المرحلة الأولى كانت مساعدتك لي على توليد النعجات، والمرحلة الثانية هي اخذك لي إلى نزهة جوية معك في البالون... ونلك لكي تدير رأس طفلة حلوة بسيطة مثلي.»

فتح زاك فمه ليقاطعها، ولكنها تابعت تقول: «والآن هذه هي المرحلة الثالثة والتي ستجعلني عجينة بين يديك. كان عليّ ان اتكهن بنلك من قبل، طبعاً... فقد كنت أعلم طول حياتي أي أناني هو أنت.»

راشيل فورد

راشيل فورد... ولدت في بلدة كوفنتري، سليلة لأسرة عريقة في الزراعة في منطقة وورويكشاير، تعرفت إلى زوجها في جامعة بيرمنغهام، وهو الآن محاضر رئيسي في معهد عال للحرف والفنون، وقد علّمت راشيل وزوجها في المدارس لعدة سنوات بعد زواجها، وقد قاما باجازات اسطورية في مكسيكو، وكذلك في فنزويلا والإكوادور اثناء الثورات والانقلابات، وقد انجبت ابنتيهما في انكلترا، بعد ذلك اتخذت راشيل مهنة الكتابة والتي كانت تستمتع حقاً فيها... وكانت أولاً، تكتب قصصاً للصغار، ثم اخذت تكتب الروايات العاطفية.

عبير ١١٠٣

Abir 1103

رجل من صخر

راشيل فورد

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromancia.com

الفصل الأول

تحطم غصن داست عليه تامسن بقدمها، فجمدت في مكانها حابسة انفاسها، ولكن لم تبدر أية ردة فعل من الرجل ذاك، بل بقي مستنداً إلى جذع الشجرة، وهو يحدّق في مياه الجدول المتدفقة.

وفجأة، خرج القمر من خلف مجموعة من الغيوم فتراجعت بسرعة إلى ظل شجرة السنديان بجانبها، ونظرت إلى الرجل مرة أخرى، ولكنه كان ما زال شبحاً مبهماً اكثر دكنة من النباتات القاتمة حوله، كانت على وشك ان تصطدم به لولا ان حركة بسيطة نبهتها إليه بينما كانت تقترب منه.

أرهفت حواسها ظلمة الغابة حولها ما جعل من أية حركة بسيطة، مثل احتكاك غصن بآخر، أو احتكاك أوراق الشجر فوق رأسها، أو حركة خفيفة لمخلوقات ضئيلة تتسلل بين الأعشاب، جعل كل ذلك يتضخم في مسامعها عشرات المرات.

ونعقت من بعيد بومة بصوت جعل جلدها يقشعر فزعاً، ولكن أهي بومة حقاً، أم هو لص متسلل في هذا الليل... أم هو عدو؟ ولكن لم يكن ثمة صوت آخر، وهكذا عادت خفقات قلبها إلى طبيعتها.

لفت وشاحها الأسود تخفي به قسماً من وجهها، ثم تركت ظل الشجرة واخذت تركض بصمت مجتازة الياردات القليلة

من الأرض الفضاء، حيث كانت الأعشاب تلمع باللون الفضي في ضوء قمر، إلى حيث وصلت إلى جذع شجرة أخرى.

كان بإمكانها ان ترى الرجل الآن بوضوح تام، كان ظهره اليها مستغرقاً في تأمل الصخرة التي كانت الطحالب تغطيها والقائمة على ضفة جدول المياه، يا له من أحمق، فقد كان يجلس دون احتراس، وقد بدا واضحاً انه يظن نفسه آمناً تماماً في هذا الركن المنعزل من الغابة، ولكن تامسن اقتفت أثره إلى هذا المكان لأنها كانت تعرف وتعشق كل إنش من هذه الأرض، منذ طفولتها.

إستلت البندقية من حزامها خلسة، ثم مدت يدها إلى سترتها فأخرجت منها الرصاصة ووضعتها في الخزان، ثم أزاحت بقدمها بخفة، غصناً جافاً آخر، وعادت تخرج من مخبأها ثم تسير بشكل جانبي كيلا يراها.

رفعت معصمها الأيسر، ثم سددت فوهة البندقية والتمع المعدن في ضوء القمر، وللحظة إرتجفت يدها، فقد كان جاعلاً من نفسه هدفاً سهلاً لها، ولكنها ما لبثت ان نبذت ذلك الشعور بوخز الضمير الذي تملكها، وعادت تسدد البندقية مرة أخرى، وبنشوة بالغة ضغطت بإصبعها على الزناد.

لكن في نفس الوقت، إذا به يستدير بحركة غريزية، متأهباً للقفز في اتجاهها، ولكن بعد فوات الأوان إذ ان الطلقة اصابته في صدره مباشرة.

وصدرت عنها صيحة: «ها، انه ميت الآن.» ولكنها ما ان ألقت نظرة على وجه الرجل، حتى تلاشت صيحة الانتصار لتحل مكانها رجفة ذعر ثم ألقت البندقية من يدها واستدارت لتهرب، ولكنه كان أسرع منها هذه المرة، فشعرت به يمسك

ذراعها اليمنى ثم يلويها إلى الخلف، ورغم لهفتها إلى الهرب، أرغمت نفسها على عدم المقاومة، ذلك انه كان واضحاً انها وقعت في قبضة لا ترحم.

«أية لعبة تظنين نفسك تقومين بها؟»

وعندما لزمت الصمت، لوى ذراعها بوحشية جعلت العرق ينضح من جبينها، ثم أدارها لتواجهه.

«حسناً، فلنلق نظرة على وجهك، الآن.» وبيده الأخرى، أزاح الوشاح عن وجهها، وفي لهفتها إلى ان لا يعرفها، اخذت تتململ في قبضته، ولكنه أمسك بشعرها وأمال وجهها إليه، كانت عيناها مغرورقتين بدموع الألم، ولكنها استطاعت ان ترى بوضوح الصباغ الأحمر الذي سال من رصاصتها والذي تناثر رشاشه على كنزته ذات اللون الأزرق الفاتح وكذلك عينيه ووجنته اليسرى، وكانت عيناه الزرقاوان أكثر برودة مما كانت تعهدهما: «والآن أي مشاغبة أنت.»

وعندما بقيت صامتة، ترك شعرها وقبل ان تتمكن من الافلات من قبضته، كان قد مسح بخشونة الوحل الذي كانت مسحت به وجهها وجبهتها لتخفي معالمه.

اخذ يحملق فيها قائلاً: «آه، لا يمكنني ان اصدق ذلك.»

«مر... مرحباً يا زاك.»

«تامسن... تامسن وستماكوت؟ يا للحمقاء الصغيرة، ما الذي جعلك تقومين بذلك؟»

وأخيراً، استطاعت ان تتمالك نفسها، فأجابت ببرود: «المفروض ان ألقي انا عليك هذا السؤال، ثم هل لك، من فضلك، ان تترك ذراعي قبل ان تكسرها؟»

خفف من ضغطه على ذراعها قليلاً، فجذبتها منه ثم اخذت تدعك معصمها، لا بد ان قبضته ستترك علامة بارزة غداً.

تابعت تقول: «اظنك تعلم بانك تتعدى على أملاك الغير، فإن أرضك تنتهي حدودها عند الجدول.» وكانت تقول له هذا بلهجة رسمية باردة.

فقال دون اكتراث: «آه، نعم لقد نسيت ولكن أسرتك، على كل حال هي صاحبة لسكومب منذ متى... أربع سنوات؟ ولكننا امتلكناها منذ خمسمائة عام قبل ذلك.» وعندما حملقت إليه، تابع يقول: «ما الذي ستفعلينه بهذا الشأن؟ قومي بالمزيد من أساليب رامبو وتخلصي مني دون مساعدة من أحد.»

فردت عليه بحدة: «نعم، فهذا يعجبك، أليس كذلك؟ هل لكي امنحك فرصة أخرى لتعاملني بها بهذه الخشونة والعنف؟ وربما في المرة القادمة ستكسر ذراعي كلياً.»

فقال عابساً: «هذا ما أريد القيام به، فأنت لا تعلمين كم أنت محظوظة، فأن ألتفت فأرى شخصاً مموه الوجه للتنكر وفي يده بندقية قادماً نحوي... يا عزيزتي، لقد تدربت على كسر العنق في موقف كهذا.»

وعندما أخذت تنظر إليه متوجسة، تابع يقول وهو ينظر إلى الملابس العسكرية التي ترتديها، بنفور واضح: «والآن، هل تتكرمين بأن تخبريني عن السبب الذي يجعلك تتبخترين في أنحاء غابة لسكومب مرتدية مثل هذه الملابس؟»

فقالت بغطرسة: «انني في الواقع، أقوم بدور في لعبة الحرب.

ضحك ساخراً: «ماذا؟ حسناً، هذا ليس اكثر مما توقعت أن يكون، فقد كنت دوماً تتشبهين بالغلمان، لا تعرفين إلى أي جنس تنتمين.»

غاظتها سخريته، فشدت من قامتها وهي تنتهره عابسة: «والآن، اسمع...»

«حتى بالنسبة اليك، يبدو قيامك بدور الجندي هنا وحدك، أمراً شاذاً.»

«أنا لست وحدي، فهناك مجموعتنا كلها.»

وكأنما لإثبات كلامها، سمعا صوتاً أشبه بوقع اقدام فيلة قريباً منهما، تبعه صهيل حصان: «حسناً، لا بأس إذن، فكل مجموعتك في غابة لسكومب يمثلون دور جنود.»

قالت بحدة: «آه، آسفة، فهذا طبعاً، شيء يبدو تافهاً بالنسبة إليك، لقد نسيت ان زاك ترنشارد هو جندي حقيقي، من كوماندوس البحرية الملكية، أليس كذلك؟»

فتوترت شفتاه: «انك مختلفة عن الزمن، يا حلوتي، ذلك انني... تركت البحرية منذ عامين.»

فقالت بدهشة: «تركت؟ ولكنه كان حياتك كلها... فهو كان الشيء الوحيد الذي يهمك.»

اضافت ذلك بمرارة، ولكنه لحسن الحظ، لم ينتبه إلى كلماتها الأخيرة، إذ كان يقول: «لقد تركت البحرية، وأنا الآن اعمل في لندن.» شعرت وهو يقول ذلك، بالإحباط والغضب خلف لهجته الكئيبة.

لم يكن أي من هذه الأخبار قد وصل إلى القرية، ذلك ان عندما خرج زاكاري، أو زاك كما كانوا ينادونه، من القرية للمرة الثانية والأخيرة، وذلك منذ خمس سنوات، كان حقاً قد

قطع ما بينه وبين ماضيه بأجمعه، وهكذا في هذه الحالة...

«ولماذا عدت الآن؟»

«جئت لأزور والدي، لا بد انك سمعت بأنه مريض.»

«نعم، لقد سمعت.»

ولكنها لم تضف إلى قولها هذا انها رفضت ان تدع خبر مرض جايمس ترنشارد الذي جعله طريح الفراش إثر جلطة دماغية، لم تدعه يؤثر عليها بأي شكل، أو ان القرية قد اهتمت بالقطيعة النهائية بين الأب وابنه وقررت تبعاً لما قالته خادمة عندهم، بأنه حتى الجلطة التي أصيب بها الوالد لن تجعل زاك يعود مهما كانت الظروف.

قال: «على كل حال، كنت قادماً لرؤيتك، انني أريد ان اتحدث اليك.»

«آه، ولكن لا شيء بيننا يستدعي الحديث عنه.»

«بل اظن هذا، ان لديّ عرضاً عملياً بسيطاً لأجلك.»

«لا يهمني أي عرض منك... أو من والدك.» انفجرت بهذا القول، ولكنها ما لبثت ان عضت شفتها، مرغمة نفسها على عدم إبداء عدائها السافر.

حدق إليها، وكأنما فوجىء بالمرارة التي بدت في لهجتها، ولكن قبل ان يتمكن من الجواب، إذا بشخص يبرز إلى العيان في نهاية الأرض الفضاء، ثم يختفي في الظلام، يتبعه شخص آخر وهو يكلمه بعنف بالإشارات.

انتهزت تامسين الفرصة لتقول: «لا... لا يمكنني الحديث إذ عليّ ان أعود إلى البيت لأعد المرطبات.»

بدا وكأنه يهم بمناقشتها، ولكنه عاد فهز كتفيه: «لا بأس، سأراك في وقت آخر.»

«لقد اخبرتك بأن لا شيء بيننا يستدعي الحديث، فهل لك ان تدع هذا.»

وقبل أن يجيب، استدارت واخذت تسير في الطريق الضيق.

«أيها الغلام الجندي.»

فالتفتت على كره منها لترى زاك ما زال واقفاً حيث تركته: «لقد نسيت هذا.»

وبعد ذلك بلحظة، كانت بندقية الدهان تستقر عند قدميها، فالتقطتها ثم تابعت سيرها بينما ضحكاته تتبعها.

* * *

«الوداع يا تامسين، إلى اللقاء الشهر القادم. ووقفت هي عند عتبة البوابة تلوح بيدها بينما كانت حافلة طلاب الجامعة القديمة تبتعد نحو الطريق العام، ثم دفعت ببطء بوابة المزرعة ووقفت مستندة إليها، كان الطلبة مرحين للغاية، وكان البعض منهم من عملائها المفضلين... ولكنها أحياناً، رغم انها لم تكن تكبر معظمهم بأكثر من عام أو نحو ذلك، كانت احياناً تجد من الصعب عليها تقبل حيويتهم ونشاطهم الزائدين.

هذه الليلة وقد استيقظت كالعادة عند بزوغ الفجر، حيث عليها، مرغمة أن تساعد أحد الفرقاء عندما يصلون، كانت تشعر بوهن في جسمها، وكل اطرافها في هذه الحالة، كانت عادة تنهار في حوض الحمام.. وكان ذلك يحدث عندما يكون سخان المياه غير معطل كالعادة غالباً.

مهما يكن ما تقوم به غير هذا، فان عليها ان تغسل كل

ملابس الجنود القطنية، وإلا فلن تكون جاهزة لأجل مجموعة المزارعين الفتيان أولئك يوم السبت، ونظرت إلى ملابسها بأسى، وهي ترى البقع القرمزية على سترتها، كانت في العادة، عندما تشترك معهم في لعبة ما، كانت معرفتها التامة لكل شجرة وأجمة في الغابة، تحميها من ان تؤسر أو تقتل ولكنها هذه الليلة عندما اتجهت نحو منزل المزرعة، كانت وقعت في كمين للأعداء، ذلك لأن ذهنها كان مشغولاً بأشياء أخرى، حسناً، بشيء آخر في الواقع، ألا وهو زاك ترنشارد، وتجهم وجهها وهي تفكر في هذا.

فيما بعد، حتى وهي تحرك الحساء في القدر، وتوزع الجبن وكرات الخبز في الأطباق، لم تكن تستطيع ان تفكر في شيء سواه، آه، تباً له، لماذا عاد؟ والأهم من ذلك، ما هو ذلك العرض العملي البسيط الذي سيقدمه اليها؟ حسناً، فقد قالت له بكل وضوح انها لا تريد التعامل معه، وربما سيفهم من الإشارة.

اخيراً اغلقت البوابة واستدارت نحو المنزل، ولكنها بالرغم من التعب الذي كانت تشعر به، وقفت عدة لحظات تاركة مشاعرها المألوفة نحو هذا البناء القديم تتملكها ما جعل تعبها يتبدد للحظة، مزرعة ويذرتور! البيت المستطيل المكوم على الأرض وكأن جدرانه الصوانية وسقفه المسقوف بالقش متجذرة فيه، وكان بإمكانها ان ترى خلفه الجانب الصخري من المزرعة والذي كان عبارة عن تل بقي مدة خمسة قرون يحميها من الرياح الشمالية القاسية التي تصفر كل شتاء عبر حقول قرية دارتمور المكشوفة.

امتلأ قلبها فجأة بحب تملكي عنيف، مهما كلفها الأمر،

ومهما كانت تضحياتها، فهي لن تدع هذا المكان يذهب من يدها، خصوصاً وقد أقسمت بهذا لوالدها ولكل الأجيال التي سبقته. وابتسمت بجفاء. تامسن وستماكوت ستقاوم العالم اجمع... فهل هذا ما سيكون؟ هذا ممكن جداً، اخذت تفكر بذلك بعد أن تذكرت الرسالة التي تلقتها من البنك هذا الصباح فقط، حسناً كانت في جيبها أوراق نقدية بقيمة خمسين جنيها نتيجة نشاطاتها هذه الليلة، وهكذا ستتمكن على الأقل من سداد الفاتورة لأولئك المعتوهين.

أثناء عبور الفناء، تصاعد نباح الكلب جوس من وراء باب الإصطبل القديم. وكانت تامسن تحتجزه عادة كلما جاءت المجموعة، فتقفل عليه بالمفتاح. ذلك لأنه كان عنيفاً جداً في المحافظة عليها، فكان يهجم نحوها ثائراً كلما أسروها، أثناء تمثيلها لعبة الحرب، أو تظاهروا بقتلها، ومن المؤسف انه لم يكن معها هذه الليلة، ولو كان ربما كان سيرغم زاك ترنشارد على العودة إلى بيته عابراً الجدول.

فتحت الباب فقفز منه الكلب الضخم الأسود والأبيض وهو يهز ذيله، ولكنه ما لبث ان جمد مكانه وهو يزمجر بشكل ينذر بالشر، وإذ تتبعت نظراته، تشنجت قبضتها على مقود الكلب، بشكل لا إرادي، بينما تملك الخوف نفسها.

«من هناك؟»

كان الرجل جالساً على المقعد الحجري المستطيل في ظل السقيفة، ولكنه كان الآن ينهض واقفاً ثم يتقدم منها وضوء القمر يغمر وجهه وشعره، بينما ارتفعت زمجرة جوس حتى اصبح نباحاً لم تكد تامسن تقوى على كبحه.

تقدمت إلى وسط الفناء وهي تكبح جماح الكلب، ثم وقفت تنظر إلى الزائر.

«كيف دخلت إلى هنا؟»

«من البوابة الجانبية، طبعاً.» وأشار زاك إلى ناحية الأرض المغطاة بالأعشاب: «لم أحب ان اقاطعك... فقد كنت مشغولة بتوديع جنودك الدمى.» ونظر إلى الكلب جوس بإمعان: «انه كلب ممتاز حقاً، هذا الذي لديك هنا.»

«نعم، ولا أدري إلى متى سأبقى متمكنة من كبح جماحه.» قالت ذلك، وعندما رأت انه لا يهم بالرحيل، اضافت تقول بلهجة ذات معنى: «انه لا يحب الغرباء.»

ولكن زاك لم يزد على أن ضحك قائلاً: «غرباء؟ ما هذا يا تامسن؟ انني اعرفك منذ كان طولك لا يكاد يتجاوز الركبة، وأشبه بالبعوضة في صغر حجمها، فلا تتصرفي معي إذن بصفة سيدة الأملاك.»

فردت عليه بحدة: «كلا، بل سأترك سيادة الأملاك لك أنت ولبقية أسرة ترنشارد.» وبالرغم من نيتها السابقة في ان لا تظهر أية مشاعر بالنسبة لهذا الرجل، فقد كانت تسمع نبرة المرارة في صوتها مرة أخرى، وهكذا تابعت تقول ببرودة: «على كل حال، ما دمت هنا الآن، ما الذي تريده؟»

«لقد سبق واخبرتك من قبل، بأنني أريد ان أراك مرة أخرى، حسناً، هذا هو الأمر.»

«إنني آسفة، ولكن عليك ان تنتظر حتى غد، فالوقت لا بد تجاوز العاشرة والنصف، وأنا متعبة للغاية.»

اخذ يتفرس في وجهها: «نعم، هذا ما يبدو عليك.» فنظرت اليه بحدة، ولكن لم يكن في صوته أي أثر للسخرية

كما ظنت، بينما كان هو يتابع قائلاً: «ولكن ما أريد قوله لن يستغرق وقتاً طويلاً، يا تامي...»

تامي... انه اسم التدليل القديم لها والذي لم يكن يستعمله احد خارج الأسرة ما عداه هو وسارا.

فقالت ببرودة: «ان اسمي هو تامسن، ليس ثمة من يدعونني تامي الآن.»

«... وهكذا إذا دعوتني فقط للدخول، إلا إذا كنت طبعاً تريدين البقاء هنا طوال الليل.»

استند إلى الجدار وشبك ذراعيه، فحملقت فيه وكان ثمة معركة صغيرة بين الارادتين قد ابتدأت تلوح، وأخيراً قالت وقد تلقت هزيمتها بما أمكنها من الكياسة: «لا بأس، تفضل بالدخول.»

تقدمت وهي ما زالت تقبض على مقود الكلب جوس، ففتحت الباب والذي كان يؤدي مباشرة إلى المطبخ، وتبعها هو حانياً رأسه، جرت الكلب إلى سلته، بجانب مدفأة الحطب، وعندما رأته ما يزال واقفاً ينظر إلى زاك بارتياب، قالت له من بين اسنانها: «لا بأس، يا جوس، انه... صديق.»

فقال زاك: «هذا ما أرجوه، يا تامي.» فحدقت إليه من تحت غرتها الشقراء الشعثاء، ولكنها لم تقل شيئاً، بينما تابع هو يقول: «وعلى كل حال، فقد كنا دوماً اصدقاء، نحن الثلاثة، أليس كذلك؟»

أتراه فاقداً للاحساس تماماً؟ أم أنه يحاول متعمداً ان يوهن من عزيمتها بكلماته هذه التي تبدو عفوية؟ وقررت ان الفكرة الأخيرة هي الصحيحة، ولهذا لم تقل سوى: «كان ذلك منذ وقت طويل، يا زاك.»

«نعم، منذ وقت طويل جداً.»

كان صوته رزيناً، ثم سكت لحظة طويلة وهو يجول بنظراته في أنحاء المطبخ حيث كان يشعر فيه، ذات يوم، وكأنه في بيته، وكأنها هي رأت من خلال نظراته هذا المطبخ المحبوب رغم سوء مظهره، بمائدته الكبيرة المصنوعة من خشب الصنوبر، وحاملة الأطباق الضخمة والمحملة بمجموعة منظمة من الأواني الصينية التي كانت والدتها وجدتها منذ سنين، والبسط الرثة المتألقة، ومن زاوية بعيدة، كانت ساعة الجد التي ما زالت في نفس الزاوية منذ مائتي سنة، وقد وضعت دعامة تحت جانب منها نظراً لعدم استواء الأرض.

اخذ يكرر بنعومة: «منذ وقت طويل جداً، ولكن لا شيء قد تغير.» ثم وكأنه يريد ان يتحرر من مشاعر تملكته مؤقتاً، قال لها ضاحكا: «حتى أنت لم تتغيري. ما الذي جعلك تجولين في الغابات وكأنك في العاشرة من عمرك؟»

«لقد سبق واخبرتك بأنني كنت أؤدي دوراً في لعبة الحرب، لقد اجرت غابة لسكومب لمجموعة تريد تمثيل ذلك، فهذه الألعاب هي طراز شائع هذه الأيام.»

«هذا ما سمعته.» وكان صوته ساخراً نوعاً ما.

«كانوا هذه الليلة من الطلاب... ثلاثون شخصاً، بل تسعة وعشرين، وكانوا بحاجة إلى شخص لإكمال العدد فتطوعت انا معهم. انني لا اشترك مراراً كثيرة في هذه الأمور، طبعاً.»

تداركت ذلك بسرعة بعد ان رأت النظرة المتفكهة في تلك العينين الرماديتين الباردتين، وهو يقول: «ولكنني متأكد

من انك تستمتعين بذلك عندما تزاولينه.» ونظر اليها من فوق إلى تحت، متأملاً سترتها القديمة، والبنطلون الجينز الرث: «اخبريني، ياتامي، متى ستكبرين؟»

نظرت إليه دون ان تطرف عيناها، مصممة على أن لا تهتم لأي شيء يقوله: «آه، لقد كبرت، يا زاك... وهذا شيء طبيعي بعد تلك السنوات، ولكن، نعم.» وتابعت بسرعة قبل ان يقاطعها: «ان في هذا تغيير من عمل المزرعة الرتيب، وبجانب ذلك...» ثم سكتت فجأة.

«آه، لا شيء.»

كانت على وشك القول بأن وجودها وسط مجموعة كبيرة مرحة صاخبة، حتى ولو كان ذلك لمدة ساعتين أو ثلاث فقط، فهو يخفف من شعورها بالوحشة التي اخذت تشعر بها غالباً في الأشهر الأخيرة. ولكنها لم تقل ذلك، فهي لم تكن تريد عطفاً من زاك ترنشارد.

كان طوال الوقت مستنداً إلى جانب الباب، ولكنه استقام الآن فجأة، ثم أخذ يعرج إلى حيث جذب كرسياً جلس عليه.

أخذت تنظر إليه بشكل خفيّ في البداية، ولكنه عندما جلس ينظر إلى المائدة عابساً، كانت نظراتها إليه مكشوفة، كان واضحاً أنه يشعر بألم بالغ، لقد كانت شفتاه منوبرتين بشكل خط نحيل، كيف حصلت اصابته؟ أتراه تعثر في الغابة، بعد ان تركته، بفرع شجرة واقع على الارض، في ذلك الظلام؟ ربما.

أم ترى ذلك شيئاً أكثر خطورة؟ جرح دائم مثلاً؟ فقد كان قال انه ترك العمل في الكوماندوس بسبب إصابة حدثت له، وانقبض قلبها... فكيف استطاع ان يحتمل هذه الضربة؟

كان الآن جالساً تحت الضوء مباشرة، ولأول مرة ترى وجهه بوضوح فرأت الخطوط العميقة حول عينيه وفمه. انه لم يكد يبلغ الثلاثين، ولكنه يبدو هذه الليلة اكبر بكثير، لم يبق من ذلك الفتى، الشاب الذي كان يعجبها منذ سنوات طويلة، لم يبق منه سوى ذلك الزهو البادي في هيئة رأسه من الخلف، وفي تلك الغطرسة البادية حول شفتيه الرقيقتين، ولكنه عندئذ رفع يده وأخذ يتخلل شعره الأسود بأصابعه وقد بدا عليه نفاد الصبر، وفجأة إذا بها تشعر لهذه الحركة المألوفة بلوعة عنيفة في داخلها.

لا بد انه رأى هذه النظرة في عينيها وإن لم يفهم سببها لحسن الحظ... لأن شفتيه عادتا إلى التوتر مرة أخرى وهو يقول: «لا تقلقي، يا تامي فإن ساقي ليست دوماً سيئة إلى هذا الحد، كل ما في الأمر هو أنني تعبت من قيادة السيارة من لندن إلى هنا هذا المساء.»

ترددت قبل ان تقول وهي تنتقي كلماتها: «هل هذا سبب خروجك من البحرية؟»

فأومأ برأسه بحقد.

«ولكن كيف حدث هذا؟»

«لقد كنت ضابطاً في قوات السلام الدولية في الشرق الأوسط، ولكن المعنيين بالأمر لم يعجبهم ذلك.»

«آسفة لأجلك.» وكان هذا كل ما استطاعت قوله.

فقال باختصار: «ولكنني عشت، ولكن اثنين من رجالي لم يتوفر لهما هذا الحظ.»

كان صوته قاسياً، ولكنها أحست بالألم وراءه، وشعرت بالعطف يتملكها نحوه مرة أخرى، ولكن عليها ان لا تشعر

بالشفقة على هذا الرجل... فهذا يضعف عزائمها، وبينما كانت تتصارع مع مشاعرها، تلاقت نظراتهما.

ابتدأ بالقول: «تامي...»

لكنها قاطعته قائلة: «ما... ما زال ثمة شيء من الصباغ على وجهك.»

«أحقاً؟» وأخرج من جيب بنطلونه منديلاً مطوياً ناوله لها قائلاً: «امسحي ذلك، إذن.» فاقتربت من المائدة على كره منها، وأخذت المنديل من يده، ثم اخذت تمسح به بقع الصباغ عن جبهته وذلك بيد ترتجف، واضطرت، لكي تمنعه من الحركة إلى ان تضع يدها على رأسه، وعندما وضعت راحتها على ذلك الشعر الأسود الكثيف، شعرت مرة أخرى بتلك الموجة من الألم، اخذت تعمل بصمت، وما ان انتهت حتى تراجعت مبتعدة عنه.

قالت وهي تعيد إليه منديله، دون ان تنظر في عينيه: «لقد ذهب الصباغ تقريباً، اظنني اتلفت كنزتك.»

فهز كتفيه بعدم اكتراث: «لا تهتمي بذلك.»

«ولكن هذا لم يكن ذنبي، في الواقع، كما تعلم، إذ ما كان لك ان تكون هناك.»

فقال بضيق: «والآن، لا تبدإي هذا الموضوع مرة أخرى، من فضلك.»

فجأة دقت الساعة. فألقت تامسن نحوها نظرة ذات معنى، ولكنه رفض تلقي هذا المعنى، وبدلاً من ذلك مال إلى الأمام ومرفقاه على المائدة وذقنه على اصابعه، ثم أخذ ينظر اليها بإمعان.

«كيف تديرين أمورك الآن، بعد ان اصبحت وحدك؟»

«إذن، فقد سمعت، أليس كذلك؟»

«نعم، فقد اخبرتني السيدة ميدوز عن والدك هذا المساء، كانت نوبة قلبية، أليس كذلك؟»

«في النهاية، نعم، هذا على الأقل، ما كتبه الدكتور بريدجز في شهادة الوفاة.» وكان صوت تامسن، وهي تقول ذلك، بارداً منخفضاً.

«انني شديد الأسف، يا تامي.»

«أحقاً أنت آسف؟»

قطب حاجبيه: «وماذا يعني كلامك هذا؟»

«آه، لا شيء.»

«وكيف حال سارا وارن؟»

جمدت يداها لحظة، وتبدلت اسارير وجهها.

«سمعت انها تزوجت.»

التفتت ببطء تواجهه: «ألم تسمع أيضاً انها ماتت؟»

..

الفصل الثاني

حملق زاك في تامسن وقد شحب وجهه للصدمة: «ماتت؟ ولكن متى؟»

فقالت بصوت جامد: «آه، السنة الماضية. في (سبتمبر).»

«آه، يا تامي ما أفظع هذا بالنسبة إليك. أنت وسارا... كنتما دوماً صديقتين حميمتين.»

وقف فجأة، ثم تقدم نحوها، ولكن عندما أراد أن يعزيها بعناقها، دفعته عنها، قائلة: «كلا. إياك أن تجرؤ على لمسي.»

وعندما تراجعت نحو خزانة الأطباق، تحرك الكلب جوس في سلته، ورفع رأسه يراقبهما معاً، ولكن ذراعي زاك هبطتا إلى جانبيه.

«اسمعي، يبدو واضحاً أنك أمضيت وقتاً صعباً، مؤخراً... فقد فقدت أولاً أخلص صديقاتك، ثم بعد ذلك والدك ولكن ما الذي يضايقك الآن؟»

«لا شيء.»

فقال بغضب: «هيا، لا أريد منك جواباً كهذا. لقد أخذت تعاملينني بكل حدة وسوء طباع وذلك منذ وصولي إلى هنا.»

نظرت إليه متحدية: «قلت لك لا شيء. وما الذي يمكن أن يكون هناك؟»

نظر إليها لحظة وكأن نفسه تراوده على الإمساك بها

وهزها ليخرج منها ما قد يكون في أعماقها، ولكنه لم يخرج عن أن قال: «ولكن ماذا حدث لسارا؟ هل ماتت بحادث اصطدام؟»

«كلا لقد كانت تزوجت مايك يوبرايت. هل أخبروك بذلك، أيضاً؟»

فاومأ مجيباً.

«حسناً. إنهما سرعان ما وجدا أن العمل في المزرعة هنا لا يكسبهما كثيراً... وهكذا سافرا إلى استراليا للعمل في الزراعة وما لبثت أن اجهضت ثم ماتت قبل أن يتمكن مايك من احضار الطبيب.» وبالرغم من تصميمها على البقاء مسيطرة على نفسها، فقد ارتجف صوتها قليلاً وهي تتابع: «وهذا كل شيء.»

أنهت حديثها وهي تفكر في أن كل ما فيه، ما عدا عدم اهتمامه بمشاعر الآخرين، جعل من الصعب على سارا أن تجد السعادة مع أي رجل سواه.

وإذ لم تستطع تامسن مقابلة نظراته العنيفة، أخذت تنظر في أنحاء المطبخ وقد تراجعت بذاكرتها إلى صبيحة يوم ذلك الزفاف التعس، حيث وقفت هي وسارا متواجهتين وذلك في إحدى غرف منزل مزرعة أسرة سارا. حيث تامسن كانت وصيفة العروس وتقف بثوبها المخملي الأزرق، وسارا في ثوبها الأبيض الطويل. وقد قال الفلاحون فيما بعد أن القرية لم تشهد عروساً بجمالها من قبل، ولكن وراء ذلك الجمال الذي هو أشبه بجمال دمية، لم ير أحد، سوى تامسن ذلك القلب المثلوج.

ومرة أخرى وجدت نفسها تقول لها بإلحاح: «إنك

ستتزوجين مايك وليس زاك. فانسيه، يا سارا فهو لا يستحق هذا منك.» وعندما أخذت صديقتها تحدق فيها صامتة، تابعت تقول: «وإلا عليك أن توقفي كل إجراءات الزفاف هذه.»

لكن سارا لم تجب بسوى هزة خفيفة من رأسها، ثم حملت باقة الأزهار البيضاء...

وكان زاك يقول: «كلا، من الواضح أن هذا ليس كل شيء.» ففوجئت بصوته وعادت بنظراتها إليه، وإذا بها ترى أنه ما زال ينظر إليها بإمعان ثم يعود إلى القول بلهجة أكثر رقة: «يا ليتك تخبرينني بكل شيء، يا تامي فقد يكون في هذا فائدة.»

ولكنه لن يحصل منها على هذه القصة الحزينة بأكملها... فهذا سر سارا، الفتاة التي تكبرها بعامين والتي كانت نشأتهما معاً منذ الطفولة إذ كانتا جارتين في مزرعتين منعزلتين. لقد كانت صداقتهما تغلبت على كل محنة وذلك منذ كانت في الثالثة من عمرها، تلعب في فناء المدرسة، وإذا بها تفرغ على شعر سارا الأشقر المضفر وثوبها الوردي، علبة دهان صندوق البريد الأحمر اللون.

وقد ازداد حب تامسن لسارا الهفة، وذلك بعد موت والدتها المبكر. وعلى مر السنوات، تطورت علاقة الفتاتين إلى أن أصبحت سارا بالنسبة إليها هي الأخت التي طالما كانت تتمناها...

كلا. يجب أن لا يعرف زاك مبلغ ما كان لرحيله من تأثير على سارا، وردت على نظراته بجمود: «ما الذي كنت تريد رؤيتي لأجله؟»

حدق فيها طويلاً، ثم هز كتفيه قائلاً: «لا بأس فليكن ما تشائين. إنني أريد أن استعيد مزرعة ويذرتور.»

«ماذا؟»

وجاء دورها لتحدق به. هذا هو العرض الذي كان حدثها عنه هناك... في الغابة ولكن كيف يقول كلاماً كهذا بكل هدوء؟ ولكن هذه هي عادته، بالطبع وطريقته في النظر إلى الأمور. الأنانية، الهدوء، برودة النظرات...

كان ذهنها يدور ولكنها لكي تعطي نفسها وقتاً للتفكير قالت: «ولكن والدك باعها لنا منذ أربع سنوات فقط.»

«نعم، ولكنه أدرك الآن أنه كان مخطئاً.»

نظرت إليه وقد ضاقت عيناه: «إنك تعني أن هناك من أقنعة بأنه كان مخطئاً.»

فأطلق زاك ضحكة قصيرة جافة: «دوماً كنت فتاة حادة الطباع، يا تامي وأحياناً من الحدة بحيث يضرّ ذلك بمصلحتك.»

«وأنت تعني أن هذه إحدى تلك المرات.»

«بالضبط.»

«ولكن والدك لم يدرك منذ أربع سنوات، أن عمله ذاك كان خطأ، وذلك عندما وضع والدي أمام خيارين فإما أن يشتري المزرعة، وذلك بسعر الأرض في ذلك الحين، أو يخسر استئجاره المزرعة والذي كان في يد أسرتنا منذ مئات السنين.»

فقال ببرودة: «من المؤكد أن معلوماتك خاطئة، فقد كان والدك في منتهى السعادة لامتلاكه المزرعة.»

«أظنها القصة التي أخبروك بها... وهي التي اخترت أن تصدقها. صحيح أنك كنت بعيداً عن القرية تذهب وتجيء يا زاك وذلك منذ كنت في السابعة عشرة ولكنك من أسرة

ترنشارد، ولهذا لا بد أن تكون نظرتك إلى الأمر بهذا الشكل، أليس كذلك؟»

«ليس بالضرورة، فأنا لم أكن أوافق أبي دوماً على وجهة نظره وأنت تعلمين ذلك.»

«وأظنه لم يخبرك بأن القلق لاستمرار سير المزرعة هذا إلى ضخامة القرض الذي اضطر والدي إلى اقتراضه من البنك ومع كل ذلك هبوط الأسعار كل هذا قتله في النهاية.»

اغرورقت عيناها بدموع محرقة سرعان ما غالبتها. إنها لن تبكي أمامه.

جلس زاك على كرسي، مشيراً إليها بحزم، بأن تجلس قبالته. ترددت في البداية ثم عادت فجذبت كرسياً جلست عليه. جلس يحدق إليها دون أن يتكلم وذلك لعدة دقائق ما جعلها تشعر بالضيق أمام نظراته المتفحصة.

لكنه أخيراً وكأنه توصل إلى قرار ما، قال: «مهما كانت الحقيقة فأنت لا يمكنك إدارة المزرعة وحدك.»

«أنا لست وحدي.»

«آه، ومن هو الذي يساعدك فيها، إذن؟»

«لقد أصرّ ماتيو على البقاء بعد موت أبي.»

فقال ضاحكاً: «أتعنين ماتيو هوسكنز؟ ما هذا يا فتاة؟ لا بد أنه الآن في التسعين من عمره.»

فقالت له بجمود: «إنه في الثالثة والسبعين.»

«حسناً، إذن أنتما الآن عبارة عن فتاة صغيرة ورجل عجوز تديران هذه المزرعة. لم أعهدك حمقاء من قبل على الاطلاق يا تامي، ولكن إلى متى تظنين نفسك قادرة على الاستمرار بهذا الشكل؟»

ودون وعي منها، تحولت عيناها إلى الرسالة التي كانت تلقتها هذا الصباح. وتابع هو اتجاه نظراتها إلى حيث كانت الرسالة مسندة إلى إناء صيني على رف الأطباق.

«لا أظن هذه بطاقة حب بمناسبة عيد سانت فالنتين من مدير المصرف.»

فقالت بحدة: «لا تتدخل في ما لا يعنيك.»

ولكن الإحمرار تصاعد إلى وجهها رغماً عنها، فتابعت تقول بسرعة: «وعلى كل حال، فأنا لا أقوم بمعظم أعمال المزرعة المعتادة حالياً فقد بعت الجزء الأكبر من قطيع الأغنام...»

ولم تشأ أن تخبره بأن البيع هذا كان استجابة لأول انذار تلقته من البنك قبل العيد، بل تابعت تقول: «ولكنني احتفظت بالباقي، كما أنني ما زلت احتفظ بالأبقار.»

«الأبقار وبعض الأغنام أهذا كل شيء؟»

ردت بحدة وقد ساءتها لهجته المتعجرفة: «كلا، ليس هذا كل شيء. فأنا أقوم بأعمال متنوعة، وإذا كنت لاتعلم، فمالكو المزارع فوق الجبال وعند سفوحها، يقومون عادة بذلك.»

«ما الذي يدور في ذهنك بالضبط، إذن؟»

«حسناً، إنني أفكر في تحويل المرعى إلى موقف دائم للعابرين أو ذوي الإقامة المؤقتة، تقف فيه السيارات وعربات النوم والخيم، وهذا سوف...»

«وهل هذه فكرة حكيمة؟»

فقالت بشيء من الغضب: «آه، لا تقلق فأنت لن ترى ذلك من ضيعتك.»

قال بهدوء: «ليس هذا ما قصدت. إن طفلة مثلك، وحدها، يمكن أن تتعرض لكل أنواع المزعجات.»

«لا أريد أن تدعوني طفلة على الدوام.»

ماذا حصل لهذا الرجل؟ ألا يراها امرأة ناضجة في الواحدة والعشرين من عمرها الآن؟ كانت تفكر بذلك عندما حانت منها التفاتة إلى المرآة المعلقة على الجدار أمامها، فتأوهت في داخلها.

شعر أشقر أشعث قد ربطته بسرعة بشكل ذيل حصان، بينما افلتت منه عدة خصلات وضعتها خلف أذنيها بغيظ... ووجه صغير خالٍ من أي نوع من الزينة، وأنف مرتفع إلى أعلى وفم ممتلىء. حتى عيناها، واللتان كانتا أجمل ما في وجهها باتساعهما ولونهما الأخضر واهدابهما الكثة السوداء، كانتا تزيدان من مظهر البراءة والسذاجة في وجهها ما كان يثير غيظها.

كم من المرات أثناء السنوات التي مرت كانت تقف فيها أمام هذه المرآة بالذات تتمنى لو أن قوامها يصبح بطول وجمال قوام سارا. فقد كانت تشعر دوماً بالصغر والتفاهة بجانب صديقتها سارا والتي كانت محط إعجاب سكان القرية بشعرها الطويل الأشقر الجعد وعينيها الزرقاوين الكبيرتين. وعندما كانت تامسن في السابعة من عمرها، كانت تسأل أمها عما إذا كان ممكناً أن تتحول العينان الخضراوان إلى زرقاوين. ولكنها ما لبثت أن تخلت في النهاية عن مثل هذا الأمل الذي لا رجاء فيه مفضلة الاتجاه إلى الطرف النقيض له، ألا وهو دعم مظهرها الصبياني البعيد عن الأنوثة...

وعندما تملكها الضيق لأفكارها هذه، عادت تلتفت إلى زاك قائلة بجمود: «إنني لست طفلة، وأنا قادرة تماماً على إدارة أعمالي.»

«هذا مجرد رأي، فإن دخل بعض الخيم وعربات النوم في الصيف، لا يكفيك للمعيشة وقتاً طويلاً فلماذا لا تفكرين بتعقل و...»

فانفجرت قائلة بحزم: «وكذلك أفكر أيضاً في أن أتقدم بطلب الموافقة الرسمية على غرس الصنوبر على المرتفعات نحو «ويذرتور».»

فقال بنهجة هي أيضاً لم تعجبها: «أحقاً؟ إنني ما زلت أنكر أنك عندما كنا نخرج نحن الثلاثة على الخيل متنزهين في المراعي الخضراء أنكر أنك كنت تكرهين أشجار الصنوبر والتي كانت تفسد المناظر حسب قولك وكنت دوماً تقولين إنك ستقطعين كل شجرة منها.»

«نعم حسناً...» وسكتت فجأة قد لا يكون من الحكمة أن تجيبه حالياً بالمثل الذي يقول: (الشحاذون ليس لهم الخيار.)

كان ينظر إليها وعلى شفتيه شبه ابتسامة: «كم كنت فتاة صغيرة عنيفة في تلك الأيام.»

كلا، لا يمكنها أن تتشاجر معه وفي عينيه تلك الرقة المغناطيسية القديمة. وملأت نفسها المرارة والألم فقالت فجأة: «حسناً لقد غيرت رأيي. إن البعض يضطر إلى هذا أحياناً كما تعلم. ولكن هذا ليس كل شيء فتلك الألعاب الحربية...»

«آه، نعم، «لعبة الحرب» تلك... حدثيني عنها.»

«حسناً، لقد رأيتنا هذه الليلة.»

«هذا صحيح. وكم تأخذين أجراً من أولئك الفتيان الذين يمثلون دور الجنود لاستغلالهم غابة لسكومب.»

تملكها الغضب وهي ترى نفسها مضطرة مرة أخرى إلى اتخاذ موقف الدفاع: «هذا يتوقف على الظروف. فالمجموعة هذه الليلة دفعت خمسين جنيهاً.»

صدرت عنه ضحكة عدم تصديق وهو يقول: «خمسون جنيهاً؟ أظنك تعنين للشخص الواحد؟»

فقالت باستياء: «إنك تعلم انني لا أعني هذا؟ وكيف يمكن لتلميذ أن يدفع مبلغاً كهذا؟»

فقال بجفاء: «بالضبط وهذا يفسر عدم رغبتي في التعامل مع التلاميذ.»

قالت تسأله بارتياب: «ماذا تعني؟»

«حسناً، كما سبق قولك، هذه اللعبة هي من باب التنويع. وفي ذهني الآن خطة لتنظيم المزرعة هذه ما دمت سأستعيدها الآن.»

فحملقت فيه بذعر وهي تقول بصوت مختنق: «أتعني... أنك عدت لكي تقيم هنا؟»

«طبعاً إذ من الواضح أن أبي ما عاد بإمكانه إدارة المكان من الآن فصاعداً وهكذا عاد ابنه المبذر إلى البيت ليديرها له.» وابتسم ساخراً.

«آه...» هذا كل ما استطاعت قوله. ذلك أنه عندما كان زاك ترانشارد غائباً دون فكرة عن عودته كان ذلك أمراً محتملاً... ولكن أن يعيش بجانبها... ولو ثانية واحدة، وأوشك لسانها أن يزل فيقول نعم، لا بأس سأبيعك

المزرعة. أي شيء يجعلها بعيدة عنه ولكنها كبحت نفسها عن أن تقول شيئاً كهذا.

وكان هو يتابع قائلاً: «نعم، لقد كنا نفكر في نفس الشيء أنا وأنت يا تامي، والفرق الوحيد بيننا هو أن مستوى عملك عديم الأهمية بينما أنا أنوي أن أعمل على مستوى أرفع.»

«مستوى أرفع.»

«نعم إنني اهدف إلى التعامل مع الرجال الكبار... والشركات المتنوعة، وتنظيم الأمور بشكل كامل.»

نظرت إليه ذاهلة: «ما الذي تتحدث عنه؟»

فمال إلى الأمام قائلاً: «اسمعي إنك سمعت عن (هيئة الضيافة) أليس كذلك؟ حيث تستضيفي الزبون المفضل لديك مدة نهار في الأقاليم مثل ويمبلدون أو اسكوت مثلاً؟؟» اومأت ببطء، فتابع يقول: «حسناً، فكرتي هي أن نزيد على ذلك بأن نضع برامج عمل يمكن بمقتضاها أن يقوم الزبائن بشيء ما... شيء كانوا دوماً يحلمون بعمله دون أن تسنح لهم فرصة لذلك، بدلاً من أن يمضوا نهارهم في المشارب بعيدين عن العمل.»

«ما هو نوع تلك الأشياء؟»

«أذكري اسماءها لكي ندونها. سيكون هناك لعبة رمي الأطباق وصيدها وكذلك أي شخص حلم يوماً بقيادة سيارة سباق بسرعة مئة وعشرين ميلاً في الساعة... أو دبابة حربية قديمة... حسناً، أنهم سيجدون تلك الفرصة عندي. إنني سأقدم طلباً باستئجار ذلك المطار الحربي القديم الكائن في الطرف الآخر من القرية وتحويله إلى مجال لكل ذلك.»

فقالت بحدة: «وأنت طبعاً ستحصل على إذن بذلك. إن كل الأمور تسير حسب مشيئتك، أليس كذلك؟»

أجاب: «ليس دائماً.» قال ذلك بلهجة متوترة وشيء من العبوس.

عضت تامسن شفتها ثم قالت: «آسفة، ما كان لي أن أقول ذلك. لا بد أن الأمر كان فظيعاً بالنسبة إليك لاضطرارك إلى ترك البحرية.»

«حسناً، دعينا نقل فقط إن ذلك اليوم لم يكن أسعد أيام حياتي. ولكن على كل حال نعم. أظن الطلب سيحظى بالقبول. خصوصاً وأن هذا المشروع سيعود على القرية بمال وفرص عمل هي بأمس الحاجة إليهما.»

«أظن ذلك.» كانت تعلم أنه على حق، ولكن... وقالت له: «في هذه الحالة، لماذا تريد أرضي أيضاً؟»

«إن لديك غابة لسكومب وتلة تور نفسها.»

«تور؟ ولكنها تلة فقط تعلوها صخرة من الصوان. وهي تصلح لرعي الغنم...»

فقاطعها بلطف: «أو غرس أشجار الصنوبر فيها.»

ولكنها لن تأكل الطعم، فقالت: «ولكنها لا تفيدك بشيء.»

«آه، ها إننا وصلنا إلى الناحية الأخرى من مشاريع ترنشارد.»

سألته بحذر: «وما هي هذه؟»

«تلك الشركات، فهي ايضاً تساهم في الاحداث وذلك في اختيار الطيارين. وهي التي تجعلهم يهبطون إما على التلة نفسها وإما في منتصف الليل في أرض مجهولة، وهي غابة لسكومب مثلاً، حيث تلقي بهم ضد فرقة من الكوماندوس ثم يبدأ القتال بينهم.»

فهتفت: «آه، ما هذا الكلام الفارغ؟ إن هذا لا يختلف عن لعبتي الحربية.»

فقال ساخراً: «إن هناك المال، وأؤكد لك أنك ستذهلين للمبالغ التي ستدفعها هذه الشركات لكي تمدّ مشاريعها إلى مناطق جديدة.»

تعني أنه مثلك... فكرت تامسن بهذا ولكنها لم تقله، وبدلاً من ذلك قالت ببرودة: «لقد فكرت في كل شيء حقاً أليس كذلك؟»

فهز كتفيه: «أظن ذلك.»

«وأظنك ستخبر كل مجموعاتي بأن لا تزعج نفسها بعد الآن. ذلك أنهم حتماً لن يستطيعوا دفع أسعارك الخيالية.»

فقال ضاحكاً بشكل غير متوقع: «كلا، بل دعيهم يأتون جميعاً فإن للمواطنين امتيازات خاصة عندنا. إن بإمكان الأغنياء أن يعينوهم بالمال. إسمعي يا تامي إن هذا سيدخل نتيجة أفضل كثيراً مما يدخله الصنوبر. اؤكد لك ذلك. فالأشجار تأخذ وقتاً طويلاً لكي تؤتي ثمارها، فإلى أي مدى تستطيعين الانتظار؟»

واتجهت عيناه بنظرة ذات معنى إلى المغلف القائم على رف الأطباق بينما شبكت تامسن يديها معاً تحت غطاء المنضدة. تباً له من لعين. كيف أمكنها على الاطلاق وإن كانت طفلة ساذجة براقة العينين، أن ترفع إليه بصرها بكل ذلك التقدير والشغف؟

حتى ولو لم يكن لديه شعور بالذنب من ناحية سارا، ألا يتذكر على الأقل بعض الأشياء عن والدها وكيف كان يمنحه غالباً صحبة الرجل للرجل والتي كان واضحاً أن الفتى الناشيء كان بأشد الشوق إليها، ولكن دون أن يتلقاها من أبيه نفسه؟ ثم أيضاً أمها... ألم تحاول من أعماق قلبها

الدافيء المحب، أن تملأ الفراغ في حياته عندما هجرته أمه ورحلت بعد أن لم تعد تستطيع العيش مع ذلك الرجل المتسلط والذي هو أبوه، أكثر من ذلك؟

ولكن، لا... لم يكن ثمة فائدة من انتظار أقل لمحة من اللين في هذا الرجل الصخري.

وإذا بها تنفجر قائلة: «قل فقط من تظن نفسك؟ لقد اختفيت منذ خمس سنوات، لتعود بعد ذلك وأنت تظن أن بإمكانك استلام حياة الآخرين بكل بساطة لماذا لا تعود إلى لندن، يا زاك، حيث هو مكانك الطبيعي؟»

كست ملامحه لمحة باهتة من الغضب، وهو يقول: «لمعلوماتك الخاصة، هذا المكان هنا هو مكاني الطبيعي... أو على الأقل قدر ارتباطك أنت به، هذا عدا أن ليس لدي في لندن ما يدعوني إلى العودة إليها. فقد بعت شركة التامين التي كنت اقمتها بعد خروجي من القوات البحرية... إذ اشترتها مني إحدى أكبر الشركات الدولية، وأنا استعمل الآن ربحي من ذلك في إقامة هذا المشروع الجديد وهكذا أخشى أن أكون في هذه الأنحاء أغلب الوقت، وهذا شيء عليك أن تعتاديه.»

سرى في كيانها ما يشبه قشعريرة الخوف. فقد كانت تعلم قوة شخصيته وعزيمته الحديدية في شق الطريق التي يريدها مهما كلف ذلك الآخرين. كانت قد ابتدأت تشعر بأنها في زورق صغير يسير بسرعة خطرة بينما فقدت هي مجذافيها.

أضاف يقول: «وأنا مستعد لإعطائك ثمناً عادلاً، بطبيعة الحال.»

«حسناً، هذا شيء جميل منك.»

«وبسعر السوق.»

فهتفت بحرارة: «سعر السوق، ولكنك تعلم جيداً أن اسعار الأراضي قد تدهورت بشكل مخيف في السنوات الأخيرة. فأرضي الآن تساوي أقل بكثير مما أرغم أبي على دفعه ثمناً لها.»

فهز زاك كتفيه: «إنها مشكلتك الخاصة، وليست مشكلتي وهي على كل حال تتأرجح بطريق غير مباشر. والمنزل لا بد أنه كان أغلى كثيراً مما دفع فيه.»

«المنزل.» وقفزت واقفة فانقلبت كرسيها على الأرض دون أن ينتبه إليها أحد، ثم أخذت تحدق فيه وهو يقول: «طبعاً، فأنا سأحتاجه هو أيضاً لأن رجال المدينة أولئك سيجن جنونهم إزاء فكرة النوم في هذا المنزل الذي ما زال صامداً منذ العصور الوسطى، ولو ليلة واحدة على الأقل حيث يشعرون بالعودة إلى جذورهم أو ما أشبه.»

أخذت تحدق إليه شاعرة بصراع بين الغضب والارتباك في نفسها كيف يمكنه أن يجلس هكذا بكل برودة مؤشراً على البنود واحداً بعد آخر، متصرفاً بذلك بحياتها بأكملها.

تابع يقول ونظراته تجول في أنحاء المطبخ مرة أخرى: «وبجانب ذلك، لا تنسي أننا عشنا في هذا المنزل زمناً طويلاً قبلكم. فنحن كنا هنا مدة ثلاثمئة سنة على الأقل، قبل أن ننتقل إلى المنزل الجديد.»

المنزل الجديد؟ وعادت إلى مخيلتها صورة ذلك المنزل الرائع الجمال والمبني من الحجر الرمادي والذي تحيط به المراعي المعشوشبة المنحدرة نحو الوادي حيث تعاقب أفراد أسرة ترنشارد أثناء القرنين الماضيين.

«نعم، وبكل كرم أفسحتم المجال للفلاحين لكي يستلموا هذا المكان، كما أظن.»

«فلاحون؟ هل ترين نفسك بهذا الشكل، يا تامي؟»

فأجابت بحدة: «كلا، كلا بالطبع. ولكن يبدو أنك أنت الذي تراني بهذا الشكل. فأنا اعترض طريقك مفسدة عليك مشاريعك الخيالية ولهذا يجب ابعادي دون أن يكون لي أي رأي في الأمر.»

«آه، ولكن رأيك هو المطلوب الآن.» كان صوته ناعماً منخفضاً، ولكنها أحست بالغضب يكمن وراءه. «ولكن لماذا لا تكونين عقلانية؟ فأنت تعلمين أن في هذا المشروع مصلحة كبرى لك بقدر ما هي لي.»

فقالت ساخرة: «ومتى تريدني أن أخرج بالضبط؟»

«آه، لا أريد أن أضغط عليك، يا تامي وأنت تعرفين ذلك.»

استند إلى الخلف في كرسيه، ورأت تألق الرضا في عينيه الرماديتين. إنه حقاً يظن نفسه الرابح.

ضربت المائدة بيديها الاثنتين ما جعل فناجين القهوة تهتز ثم نهضت قائلة: «حسناً، أنا آسفة إن مزرعة ويذرتور ليست للبيع... حتى ولا سنتمتر واحد منها. لو كان أبي حياً لما رضي بذلك، وكذلك أنا. إنني آخر أفراد أسرة وستماكوت و...»

«لا تكوني سخيفة.» هب واقفاً هو أيضاً، وأخذ الإثنان يحدقان في بعضهما البعض عبر المائدة: «إنك تقولين هذا وكأنك آخر فرد من أسرة حاكمة وقد اعجزتك الشيخوخة. إنك شابة وستتزوجين يوماً ما...»

فقاطعته: «أبداً، لن أتزوج على الإطلاق.»

«بل ستتزوجين طبعاً.»

أخذت تكرر بحدة: «كلا، لن أتزوج.» وأخذ صدرها يعلو ويهبط بعنف.

«لا تكوني صبيانية بهذا الشكل، يا تامي، من المؤكد أنك لن تتمكني من مغالبة الصعاب هنا. إن بإمكانك أن تشتري بالمال الذي سأعطيه لك، منزلاً حديثاً في القرية... أو تنتقلي إلى المدينة.»

تنتقل إلى المدينة؟ كيف بإمكانه أن يقول ذلك؟ أيعتقد حقاً أنها من الممكن أن تترك برغبتها أرضها الحبيبة؟

كان هو يتابع قائلاً وهو يتأمل مظهرها بقسوة: «وبإمكانك أن تنفقي بعض النقود على نفسك. لم تكوني فتاة سيئة المظهر في الأيام الخوالي فإذا اشتريت بعض الملابس اللائقة، ونظمت شعرك...»

«كلا، ألا يمكن لذهنك المتغطرس هذا أن يفهم إنني غير مستعدة للبيع، حتى ولو اضطررت لذلك فلن تحصل أنت عليها، يا زاك ترنشارد ولو كنت آخر رجل في انكلترا.»

قال وقد توترت شفتاه: «هكذا إذن. هل لي أن اسأل عن السبب؟»

هل عليها حقاً أن تقول له أنه دمر حياة سارا؟ وأنه، رغم أنهما كانا حبيبين، وقد وعدها بالزواج مراراً رغم عدم وجود خطبة رسمية بينهما، ما جعل عالم سارا يدور حوله. انه رغم كل ذلك قد رحل دون كلمة بعد ذلك الشجار العنيف بينه وبين والده؟ هل عليها أن تخبره بأنها في الليلة التي سبقت زفاف سارا، نامت هي عندها حيث أمضيت الليل

مستيقظة تستمع الى نشيج صديقتها وشهقاتها في الغرفة المجاورة؟

وأخيراً قالت بثبات: «فلنقل فقط إنني لا أحب أسرة ترنشارد.»

«إذن، فقد انحدر الأمر إلى حقد شخصي، أليس كذلك؟»

«يمكنك أن تفسر الأمر بهذا الشكل.»

«هل لأنك اقنعت نفسك بأن أبي قد خذل أباك، تجعلين نفسك بهذه التفاهة والحقد؟»

نظرت إليه غير مصدقة. كان واضحاً أنه لم يخطر بباله على الإطلاق أن عنادها قد يكون له علاقة بمعاملته لسارا. لقد نجح حقاً في محو هذا الأمر من ذهنه كلياً، ولا شك أن الغرور سيتملكه إذا علم أن سارا لم تفعل مثله. حسناً، إنها لن تخبره بذلك إذن.

فقالت بلهجة متوترة: «ما دمت تقول ذلك، يمكنك ان تفترضه صحيحاً.»

«حسناً، فأنا أنذرك بأنني لا أقبل كلمة (كلا) بسهولة... وأنا دوماً أصل إلى ما أريده سواء عاجلاً أم آجلاً.»

فردت بحدة: «أحقاً؟ في هذه الحالة ستجرب الفشل ولو مرة واحدة أليس كذلك؟»

رأت يديه تتقبضان وفكرت لحظة في أنه سيمسك بها. فقد شحن الجو بينهما بالغضب ولأول مرة في حياتها تشعر حقاً بالخوف. كانت طبعاً كثيراً ما تخاف منه عندما كانت طفلة وكانت تتعمد استفزاز الغلام زاك ولكن الأمر هذه المرة كان مختلفاً. كانت تشعر بخوف حقيقي من هذا الرجل ذي العينين الباردتين والذي يقف أمامها.

لكنه كان قد سار إلى الباب، ثم التفت إليها ويده على المقبض: «أنا كنت مخطئاً بالنسبة إلى شيء واحد، يا تامسن، فأنت قد تغيرت. لقد كنت دوماً فتاة رضية الطباع، ولكنك الآن قاسية كالمسامير.»

«تصبح على خير، يا زاك.»

ثم وقفت تستمع إلى وقع خطواته على الفناء المبلط، ثم وببطء أخذت ساقاها ترتجفان فرفعت الكرسي الذي كان سقط على الأرض، ثم انهارت عليه. وقفز الكلب جوس من سلته وجاء نحوها يتشممها. فأخذت تمر بيدها على رأسه وهي تقول غائبة الذهن.

«آه، يا جوس، يا لها من ورطة.»

الفصل الثالث

مسحت تامسن جبهتها الحارة بقفا يدها، ثم وقفت تريح ظهرها المتعب وهي تتنهد بارتياح، حسناً، لقد غرزت لكثر بذور البطاطا الآن على الأقل، ولم يعد عليها الآن إلا أن تغرس نباتات السلطة الصيفية.

أخرجت سكينها لتفتح الكيس الأخير، ثم توقفت، ان عليها أن تنهي غرس كل شيء، وكانت تعلم ذلك، إذ بالنسبة إلى قلة النقود لديها، كانت تشعر بالسرور لكل ما يمكنها زرعه، ولكن اليوم... لقد حل الربيع. والغيمات الصغيرة تتتابع فوق سماء زرقاء، وفوق رأسها مباشرة كانت قبرة تغرد بصوت مرتعش، بعد حوالي الثلاثة أسابيع من الليالي المتعبة، حان لها حقاً ان ترتاح، ولكن عصر هذا النهار كان أروع من ان تضيعه في الاستلقاء داخل الجدران... أو زراعة البطاطا.

وعندما سارت في الممر العشبي والمؤدي إلى منطقة الفاكهة، وقعت نظراتها على ضفدع ضخم يزحف من تحت أوراق متحللة لشجرة، ثم أخذ يطرف بعينيه الناعستين في الشمس، وقفت تراقبه وهي تكاد تشعر بابتهاجه العنيف لبقائه حياً بعد هذا الشتاء الطويل.

«إنني اعرف شعورك تماماً، يا صغيري.» همست بذلك وهي تدغدغ أنفه مداعبة قبل ان تتركه يستمتع بنور الشمس.

وفي المطبخ غسلت يديها ثم غيرت ملابسها الملوثة

بالوحل بأخرى انظف قليلاً، وحيث انها لم تكن تتوقع أي زائر يقطع كل تلك الطريق من القرية إلى مزرعتها، فهي لم تجد ضرورة لحبس الكلب جوس، وهكذا تركته في الفناء ينظر اليها بحزن وهي تخرج من البوابة إلى ان غابت عن الأبصار.

سارت مجتازة مخزن الغلال وحظيرة توليد النعاج، حيث كانت أمضت مع ماتيو ساعات كثيرة أثناء الأسابيع الأخيرة وحيث انها ستكون موجودة فيها الليلة دون شك. نعجات قليلة فقط لم تلد بعد، ولكن لا بد ان بعضها تنوي ذلك الليلة. وكانها تعرف انها هي ستكون وحدها دون حتى ماتيو ليساعدها.

صعدت فوق السياج، ثم سارت بمحاذاة الجدول صاعدة خلال المراعي حيث كان العشب قد نما لامعاً داكن الخضرة، قطعت شيئاً منه ثم اخذت تمضغه مستمتعة بحلاوته وعصيره، إذا دام هذا الجو، فستسرع بإحضار الأغنام إلى هنا لترعى.

رفعت عينيها عن الجدول الذي كان يتدفق فوق الأحجار، إلى المراعي خلفه والتي ما زالت جرداء سمراء اللون بسبب قسوة رياح الشتاء، كان ريفاً وحشياً قاسياً احياناً، ولكنها كانت تحبه في كل حالاته وذلك بمشاعر عنيفة ومن أعماق كيانها.

كانت الغابة امامها، إندفعت تحت اغصان شجرة زعرور مثقلة بثمارها، لتجد نفسها امام جذع شجرة ساقط جلست عليه بكل راحة، وهي تنظر حولها، كانت الأشجار قد ابتدأت تزهر، وبدت ان الاشياء قد تغيرت حقاً منذ آخر مرة جاءت فيها إلى هنا، وذلك في تلك الليلة المقمرة التي تلاقت فيها فجأة مع زاك.

زاك، لقد حاولت جاهدة أثناء الأسابيع الثلاثة الأخيرة، ان لا تفكر فيه، وكانت النتيجة انها وجدت نفسها تفكر فيه معظم الوقت، ولكن طريقيهما على الأقل لم يلتقيا... ليس مباشرة على كل حال، رغم انها كانت رأته عدة مرات، رأته مرة من بعيد على ظهر جواد يطوف في المراعي، ومرة في القرية خارجاً من مكان عام بصحبة مجموعة من الرجال الخشني المظهر والذين ربما كانوا الكوماندوس السابقين الذين كان حدثها عنهم. ثم في الأسبوع الأخير، كانت تختصر الطريق في ممر ضيق عندما وجدت نفسها فجأة امام سيارة رانج روفر جديدة متألقة.

وعندما لم يظهر سائقها، والذي كان غير مرئي خلف زجاج السيارة الأمامي نظراً لالتماعه في أشعة الشمس، لم يظهر أي دليل على رغبته في التراجع، نظراً لضيق الطريق، إضطرت تامسن إلى السير إلى الخلف بسيارتها اللاند روفر المتهالكة، في ذلك الطريق المتعرج، بينما تبعتها السيارة الأخرى تكاد تلتصق بها ومحركها يدور بفروغ صبر، إلى ان وصلت أخيراً إلى البوابة فدخلتها. فقط عندما مرت بها الرانج روفر بسرعة استطاعت رؤية السائق عندما رفع زاك يده بتحية كسول وقحة.

حتى الآن على الأقل، لم يعد زاك إلى أي تهديد أو حركة باتجاهها... ولكنه كان قال انه لن يقبل كلمة (كلا)، جواباً منها... وان لم تكن بحاجة إلى ان يخبرها بذلك، وتذكرت زاك القديم بشكل واضح أزال من نفسها كل شك في أنه سيعود سواء عاجلاً أم آجلاً.

حسناً، مهما كان نوع الضغط الذي سيزاوله عليها، فهو

لن يضع يده على هذا المكان، ولكن ما الذي يدور في خلده، يا ترى؟ كانت جملته تلك لا تنفك تعاودها (انني دوماً احصل على ما أريده سواء عاجلاً أم آجلاً.) حسناً، آسفة إذ أخيب املك، يا زاك ترنشارد، ولكنك لن تحصل على ما تريد هذه المرة، فأنا لن اسمح لك بذلك.

قطع عليها حبل افكارها اصوات مفاجئة، كانت اصوات رجال وضحك، وجمدت تامسن تستمع، كانت الأصوات قريبة جداً، ومن المؤكد انهم كانوا في الغابة.

لم يلحظها الرجال في البداية، وهي تقترب، كانوا يقفون بشكل مجموعة وكانوا ستة مستغرقين في حديث بالغ الحيوية، فوقفت عدة لحظات تنظر إليهم، كانوا غرباء في ملابس موحدة هي عبارة عن سترة مشمعة وحذاء اخضر يصل إلى الركبة، وبنطلون من التويد وقبعة من اللباد، من تراهم يكونون؟ ترددت لحظة ولكنها عندما سمعت اسم ترنشارد فهمت كل شيء.

إذن، فهذا ما يسعى إليه! كان يتنقل في أرضها محضراً زبائنه من المدينة معه، حتى دون أن يزعج نفسه باستئذانها، وتملكها الغضب، ولكنها كانت تعلم انها إذا أرادت ان تعالج الموقف، فعليها ان تكون حازمة، فتقدمت إلى الأمام.

«أتحتاجون إلى خدمة؟»

تحولت إليها ستة أزواج من الأعين تتفحصها.

«لا اظن ذلك.» وإزاء لهجة الرجل الباردة الفاصلة، شعرت بيديها تتقبضان بعنف، فدستهما في جيبي بنطلونها وعادت تقول: «أتدركون انكم في أرض خاصة؟» وكان

صوتها قد ارتفع عما كانت تنويه وذلك إزاء نظراتهم غير الودية.

«نعم، في الواقع نحن نعلم ذلك.»

أخذ الرجل، والذي كان قد أخذ دور الممثل للآخرين، يتفحصها من رأسها حتى أخمص قدميها ما جعل تامسن تتمنى بعد فوات الأوان، لو انها كانت أزعجت نفسها بتغيير ملابسها إلى ملابس أفضل من هذه التي ارتدتها والخالية من أي جمال أو نظام.

وأضاف الرجل يقول: «ولكن ما علاقة ذلك بك؟» واحمر وجهها للوقاحة البادية في لهجته.

«ذلك لأنني صاحبة الأرض هذه، هذه هي علاقتي بها.» وكانت الحدة بادية في لهجتها.

«آه، أحقاً؟» واطلق ضحكة كريهة.

«نعم، وأنت تتعدى عليها...»

فقاطعها رجل آخر من المجموعة: «آه، هيا الآن... حيث انك فتاة قروية المولد والنشأة...» قال ذلك بلهجة بدت فيها الغطرسة: «فلا بد انك تعلمين ان التعدي ليس جرماً في القانون...»

«إلا إذا تسببت بخراب ما.» وتجاوزتهم بنظراتها إلى البوابة الموجودة في الجدار الحجري المنخفض الذي يعين حدودها في هذه الزاوية من الغابة فرأتها مائلة في طرفها فسألتهم: «هل دخلتم من خلال هذه البوابة، أو من فوقها؟»

فرد الرجل الآخر بعداء: «وماذا لو فعلنا ذلك؟»

«ان أية فتاة قروية يمكنها ان تخبركم بأن لا تتسلقوا بوابة من ناحية المزلاج، فقد كسرتم المفصل.»

«إذن ما كان لك ان تقفليها.»

«إنني اقفلها دوماً، في الواقع، لكي امنع الناس غير المرغوبين، مثلكم من دخولها.» وكانت الآن قد سمحت لنفسها بإظهار غضبها.

«اسمعي، أيتها...»

«هل ثمة مشكلة، يا سادة؟»

كان هذا صوت زاك يقاطعهم بلهجة بالغة النعومة، فاستداروا جميعاً ليروه واقفاً على طرف الجدار البعيد وعندما اخذوا يحدقون إليه بصمت، وثب إلى الأرض ثم تقدم نحوهم.

أخذت تامسن، والتي كانت متوارية عنه نوعاً ما خلف الرجال، اخذت تنظر اليه وهو يقترب وقد تملكتها بالرغم منها، رعشة توجس، أخمدت غضبها على الفور، وإذ كانت تعرفه جيداً، فقد أدركت ما غفل عنه هؤلاء الرجال، دون شك، وهو ان خلف صوته الهادىء هذا كان يكمن غضب عنيف بدا في احمرار وجنتيه.

ألقى عليها نظرة تحذير واحدة ما لبث بعدها ان أهملها كلياً وهو يستدير إلى الرجال مكرراً: «هل ثمة مشكلة؟»

ولكنها لن تسمح له بأن يرهبها، فهي لم تعد طفلة الآن، فاندفعت تقول: «ليس هم من لديهم المشكلة، بل انا، انهم في املاكي.»

فقال دون ان يلتفت إليها: «أنا آسف، يا سادة، ولكن في الواقع ان الفتاة الشابة محقة...» وتوقف جزءاً من الثانية: «في الوقت الحاضر على الأقل.»

جنبت تامسن أنفاسها بغضب، هل هذا التهديد الواضح هي فكرته عن الاعتذار؟

قالت بحدة: «اظنك اعتبرت إرسالهم إلى أرضي فكرة بارعة.»

في ثلاث خطوات وصل إليها حيث أمسك بذراعها يبعدها قليلاً عن الرجال وهو يقول من بين اسنانه، ضاغطاً على ذراعها محذراً: «لا بأس، يا تامسين، فقد قلت ما تريدين، والآن أقفلي فمك.»

فعادت سيطرتها على نفسها إلى التراخي وهي ترى ابتساماتهم المتهكمة، كان من الواضح انهم كانوا ينتظرون بصفتها انثى، ان تلزم حدودها.

فقالت له بحدة: «كلا، لن اقفل فمي، تباً لك، واترك ذراعي.»

وحاولت ان تنزعها من قبضته، ولكن اصابعه اشتدت ما جعلها تكتفي بأن تقول له بعنف: «وربما قلت لهم ان يكسروا بوابتي أيضاً.»

كانت النظرة التي رمقها بها مليئة بالحقد، ولكن كل ما قاله هو: «إذا كان ثمة خراب ما، فيسرني طبعاً ان اصلحه.»

«شكراً، لا ضرورة لأن تزعج نفسك، سأصلحه بنفسي.»

أدركت الآن انها كانت تتصرف بصبيانية، رأت وكأنها عادت بالزمن إلى الوراء حيث الأيام التي كانت ترفع فيها قبضتها تستفزه، كانت دوماً تثير المشاكل... وهذا ما كانت والدتها تنبهها إليه، وكذلك كانت دوماً تقع في تلك المشاكل.

حررت ذراعها من يده ثم وقفت وهي تدعكها بينما اخذت تحملق فيه، لكن زاك والذي كان أكثر مهارة في إخفاء

مشاعره منها، لم يخرج عن أن التفت إلى الرجال وهو يقول بدماثة: «اذا جئتم من هذا الطريق، أيها السادة، فسنتابع جولتنا.»

وعندما عادوا نحو الجدار، أدلى أحد الرجال بملاحظة لم تسمعها تامسن تماماً، ولكنهم ضحكوا جميعاً ما عدا زاك الذي تقدم إلى الأمام بخطوات واسعة ووجه متحجر، دون أن يلقي إلى ناحيتها نظرة أخرى.

* * *

سمعه الكلب جوس قادماً، فشهر أذنيه ورفع رأسه من حيث كان مستلقياً بجانب مدفأة الحطب، ثم اطلق زمجرة خافتة، فجمدت يدا تامسن اللتان كانتا تدعكان العجين توطئة لخبزه، ولكنها عندما وقعت نظراتها على ذلك الشخص المألوف طويل القامة والذي كان ينزل من سيارته الرانج روفر ثم يجتاز الفناء... وكأنه أصبح مالكاً له، كما فكرت بامتعاض، عادت إلى العجن بسرعة.

عندما كانت عادت إلى بيتها، منذ حوالي ساعة، ابتدأت بصنع الخبز لكي تهدىء من توتر اعصابها، وقد نجح هذا العلاج... حتى الآن، وسمعت صوت وقع خطوات زاك على الأرض الحجرية امام الباب فقفزت متوترة، بالرغم منها، وهي ترى باب المطبخ ينفتح، ومن طرف عينيها رأت الكلب يقفز واقفاً، تمنت في داخلها لو يعضه ويمزقه أرباً! ولكن الكلب لم يفعل سوى أن دس أنفه في يد زاك مرحباً به بسرور. حسناً، انها هي التي كانت طمأنت جوس إلى ان هذا الرجل هو صديق، وبالتالي لم يعد بإمكانها ان تتراجع.

لكنها رفضت أن ترفع نظرها، وإنما اكتفت بأن قالت بعذوبة مصطنعة دون ان تحول نظراتها عن العجين: «أدخل.»

ومن تحت أهدابها، رأت زاك يتقدم ليقف امامها يواجهها: «ما الذي كنت تريدين فعله هناك؟»

سمعته يتنفس بعنف، كان واضحاً انه ما زال غاضباً، ولكي تمنح نفسها فرصة تتمالك فيها أعصابها، سألته: «من أية ناحية؟»

«انك تعلمين تماماً من أية ناحية.»

ولأول مرة، رفعت عينيها تقابل عينيه الثائرتين: «حسناً، كنت أودع اصدقاءك الظرفاء اولئك، عند مغادرتهم أرضي، إذا كان هذا ما تعنيه.»

فقال ببرود: «انهم ليسوا اصدقاء لي، انهم زبائن... أو على الأقل كانوا كذلك.»

«آه، إذن فهؤلاء هم نوع الناس الذين اخترت التعامل معهم.» كانت تعلم ان تعمدها وخزه بهذا الشكل كان أمراً خطراً، ولكن كان عليها أن تواجهه بجرأة.

فقال لها بلهجة ذات معنى: «لا يمكنني ان اختار من اتعامل معهم... اكثر مما بإمكانك انت.»

«اظنك فكرت بأنك إذا استطعت أن تأتي بهم مرة إلى أملاكي...»

«لمعلوماتك الخاصة، أنا لم اتعمد اخذهم إلى الغابة، فقد استدعيت إلى البيت لأجيب على مخابرة هاتفية مستعجلة، فأخذوا هم يجولون في الأنحاء وحدهم.»

«ومن يكونون، على كل حال؟»

«انهم يمثلون بعض الشركات التي كنت اتعامل معها، وكنت أقوم معهم بجولة اريهم فيها نوع التسهيلات التي بإمكاننا تقديمها لهم.»

«أتعني بما في ذلك غابة لسكومب؟»

فتوترت شفتاه: «لا تعودي لإثارة هذا الموضوع، يخطر ببالي الآن ان اضعك على ركبتيّ ثم انهال عليك بالضرب، وهي لن تكون المرة الأولى.»

«كلا، ولكن من المؤكد انها ستكون الأخيرة، إياك ان تجرؤ على لمسي.»

قالت ذلك وقد تملكها التوتر، شاعرة بالخوف تقريباً، من أن يمسك بها حقاً، ولكنه تابع يقول: «هل تعلمين انك كنت على وشك ان تجعليني أخسر التعامل مع ست شركات وذلك بسبب سلوكك الصبياني؟»

ألقت بالعجين على المائدة بعنف وهي تقول: «هذا حسن.»

«انهم الآن ذاهبون إلى منطقة هرفورشاير للبحث عن نشاطات أخرى، ولا اظنهم عائدين إلى هنا، ولا شك ان سكان تلك المنطقة هم أحسن ضيافة مما وجدوه هنا.»

فقالت بجرأة: «آه، أحقاً؟» ولكنها بشكل مفاجيء، شعرت بسأم بالغ يتملكها، ما جعلها لا تحتمل دوام هذا الجدل العديم الفائدة، أزاحت بظاهر يدها خصلة من شعرها عن وجنتها، وهي تقول: «اسمع، يا زاك، إذا كان هذا كل ما جئت لتقوله، فإنني مشغولة، وإذا كنت لم تلاحظ، فأنا منهمكة الآن في إعداد الخبز.»

فقال وهو يستند إلى المائدة: «هذا شيء آخر، فكل هذا كثير عليك القيام به، لماذا لا تعترفين بذلك؟ حتى ان عليك ان تصنعي خبزك في حين يوجد فرن جيد في القرية.»

«لأنني أحب هذا العمل.»

«ربما هذا صحيح، وربما تحاولين فقط ان تشغلي نفسك.»

«أنا حالياً، أحاول ان أعد هذا الخبز.»

فقال متجاهلاً كلامها: «يبدو وكأنك فقدت السيطرة على مشاعرك، هل تدركين ذلك؟ كما انك أكثر هزالاً مما كنت.»

ورأت نظراته تتفحص مظهر جسمها بعدم رضا: «انك في الواقع، تبدين فظيعة تماماً.»

«حسناً، اشكرك، وأنا اتقبل كل هذا الإطراء بسرور.»

ألقت عليه نظرة عدائية، ولكنه هز رأسه: «ما كنت لأضيع وقتي في تقديم إطراء لك لا أعنيه، يا تامي، فنحن نعرف بعضنا البعض بشكل يجعلنا لا نهتم بهذه الأمور.»

ولاحت على شفتيه شبح ابتسامة، وفجأة تملكها شعور بالغ بالحزن، كانت تظن طوال السنوات الماضية، انها تعرفه إلى أن ظهرت حقيقته.

«انتبهي، فإن الطحين يكاد يغطي وجهك.» ومد يده، قبل ان تستطيع القفز إلى الوراء، واخذ يزيل بإصبعه الطحين عن وجنتها وهو يقول: «هل ما زلت متعلقة بأرضك؟»

«طبعاً.»

«اسمعي يا تامي، ان اخذي لتلك المجموعة هذا النهار في جولة، يبدي بجلاء مبلغ ما في تعلقك بغابة لسكومب من غباء، فهذا شيء غير منطقي.»

فقالت بحدة: «وما دخل المنطق في هذا؟»

«لا شيء في الواقع، بالنسبة إليك، ولكن ألا يمكنك ان تري كيف ان الغابة تفصل المنطقة التي سأستعملها إلى جزئين؟»

«حسناً، من المؤسف ان والدك لم يفكر في ذلك عندما أرغم والدي على شرائها.»

«إذن فانت مصممة على جعل الحياة صعبة بالنسبة إليّ، وذلك بدافع الولاء لأبيك، لا اظنه سيشكرك لهذا... انني واثق من ذلك، كما انه لا يريدك ان تقتلي نفسك بالعمل، في سبيل تنفيذ ذلك.»

«كلام فارغ، حسناً، ربما كنت انهك نفسي في العمل، حالياً... ولكن مع نهاية الأسبوع ستكون مسألة الخراف قد انتهت...»

«واظنك تقومين بكل ذلك بمفردك.»

«كلا، بالطبع، فأنا اتناوب العمل بشكل جزئي مع ماتيو كل ليلة، على الأقل حتى...»

وسكتت فجأة، انها حتماً، لن تعترف بانها هذه الليلة ولأول مرة ستكون وحدها.

فقال يحثها على المتابعة: «حتى ماذا؟»

«آه، حتى تلد النعاج طبعاً.»

كان ينظر اليها بمزيج من الغضب والحنق وربما كان هناك لمحة اعجاب رغماً عنه.

«يا لك من صغيرة صلبة، يا تامي، انني اعترف بذلك، ان سارا بالمقارنة بك...»

فقالت بحدة: «ماذا عن سارا؟»

«حسناً، لقد كانت فتاة جميلة، ولكنها كانت... حسناً، بالغة الرقة والضعف.»

فقالت دون تفكير: «كان عليك ان تعرف ذلك.»

«ما الذي تعنينه بهذا بالضبط؟»

قال لها ذلك عابساً ما جعلها تمسك عن كل ما كانت تنوي أن تقوله، وهكذا هزت فقط كتفيها وهي تقول: «حسناً، لقد كنت تعرفها، أليس كذلك؟»

نظرت إليه بثبات، ثم ابتدأت تضع الأواني في الحوض لغسلها، ثم قالت وهي ما زالت توليه ظهرها: «ليس ثمة ما أقوله أكثر من ذلك، فأنا لست مستعدة لبيع المزرعة لك... وهذا نهائي والأفضل لك ان تقبله.»

فتحت صنبور الماء، ولكن صوت تدفق المياه لم يمنعها من أن تسمعه يتمتم بكلمات بذيئة، ثم بعد ذلك صوت الباب وهو يصفقه خلفه بعنف.

* * *

إرتجفت تامسن وتيار هوائي بارد يدور حولها. فنزلت من على كيس القش الذي كانت تجلس عليه، ثم سارت نحو باب المخزن.

وضعت يدها على المزلاج تحكم اغلاقه، ولكنها بدلاً من ذلك، فتحته على مصراعيه، كان النهار الربيعي الرائع الجمال قد استحال إلى ليلة باردة، وفوق رأسها كانت مليون نجمة تلتمع، بينما الفناء المبلط يبدو أبيض إلى رزقة في ضوء البدر، ومن مكان بعيد خلف تلة تور تصاعد عواء أنثى الثعلب، كان صوتاً ثاقباً حزيناً موحشاً أخافها،

وإذا بها تسمع صوت كلبها جوس ينبح مجيباً من فراشه في الإصطبل.

عادت فأغلقت باب المخزن، ثم لفت نفسها ببطانية صوفية ثم اندست بين اكياس القش واضعة رأسها بين ذراعيها.

وإلى الناحية الأخرى من المخزن، وقفت النعاج الأربع التي كانت احضرتها، بمساعدة الكلب، جوس من الحظيرة عند غياب الشمس، وقفت ملتفة حول بعضها البعض طلباً للدفء كانت النعاج تنظر إليها وقد عكست اعينها الضوء الأصفر الذي كان الفانوسان يلقيانه على المكان، وسوى ذلك لم يحدث شيء، حتى ولا دليل واحد على أن واحدة منها على وشك المخاض.

اخذت تامسن تحدق في النعاج الأربع متاملة، ربما كانت هي مخطئة في توقع ولادتها، وبالتالي من الأفضل لها ان تدعها وشأنها وتذهب إلى سريرها، سريرها... وأغمضت عينيها وهي تفكر بحنين في زجاجة الماء الساخن التي كانت دستها بين الملاءات لتدفئتها.

أيمكنها المجازفة بالذهاب؟ كلا، بكل تاكيد، ويبدو ان تامسن لم تنتبه إلى ما كانت الراعية العجوز تحدثها به في الناحية الأخرى من المزرعة مؤكدة لها ان الخراف تحب ان تتجب وأشعة الشمس على وجوهها، بينما كل واحد منها، حتى الآن، حريص على أن يولد اثناء ساعات الظلام.

عندما ابتدأت النعاج تلد منذ حوالي الثلاثة اسابيع، تقريباً، اخذت تمكث في المخزن كل ليلة إلى حوالي منتصف الليل، ثم تترك النعاج ترعى نفسها بنفسها، ولكن منذ ذلك

الفجر الرهيب حين جاءت لتكتشف جثتين صغيرتين تثيران الشفقة بينما الأم في حاجة ماسة إلى طبيب بيطري. بعد ذلك اخذا، هي وماتيو، يتناوبان السهر كل ليلة.. إلى هذه الليلة.

وتناهى إلى سمعها نباح من آخر الفناء... قد يكون جوس ما زال يرد على انثى الثعلب التي كانت تطوف خلسة في الأنحاء... ولكن إذا بخطى قائمة مجتازة الفناء، وعندما رفعت رأسها مقطبة جبينها وقد تملكتها الحيرة وشيء من الخوف، إذا بباب المخزن يفتح فيتصاعد من المفصلات صرير عال ظهر بعده خيال رجل يبدو أسود في ضوء القمر، يقف في العتبة.

الفصل الرابع

بينما أخذت تامسن تنظر إلى زاك مذهولة، أغلق هو الباب خلفه بعناية، كان يرتدي سترة من جلد الغنم الأصفر اللون، بينما ملامحه تسترها قبعة من اللباد، وبدا تحت ضوء الفانوس ضخماً رهيباً، ولكن شيئاً اكثر من ذلك كان ينبعث منه وهو يتقدم نحوها... شيئاً جعل التوتر يتملكها مرسلاً قشعريرة في كيانها وهو يقف امامها.

اخذت تحدق إليه صامتة، وأخيراً، استقامت في جسلتها محاولة كبح المشاعر التي تملكتها.

«آه، ما الذي تريده الآن؟» وكان صوتها وهي تقول ذلك، أشبه بالتأوه. كانت من شدة الإرهاق بحيث كانت الأشياء تبدو في نظرها مزدوجة ما جعلها ترى زاك ترنشارد اثنين، وكأن واحداً لم يكن يكفي...

«إذاكنت جئت مرة أخرى لكي تخوفني لأبيعك المزرعة، فبإمكانك...»

«كلا بالطبع، أيتها الغبية، فإن سريري أحب إليّ من قضاء الليل في هذا المخزن البارد لكي أجادل فتاة عنيدة سليطة اللسان مثلك، يا تامسن وستماكوت.»

«قضاء الليل؟ ماذا تعني؟»

«أعني ما قلته.»

ولأول مرة تلحظ البساط المطوي والصندوق المصنوع من الخيزران المجدول اللذين كان يحملهما، بعد أن ألقى بهما

على الأرض بجانب كيس القش الذي كانت تجلس عليه، وعندما استقام في وقفته ورأى الفزع يكسو ملامحها، اخذ يضحك بهدوء، وقد اخذت عيناه واسنانه تلتمعان في ضوء الفانوس، وخيل إلى تامسن أن في ابتسامته ما يشبه تكشيرة الذئب.

«جئت لاساعدك.»

«ولكنني لست بحاجة إلى أي مساعدة، شكراً لك على كل حال، وهكذا لا حاجة بك للبقاء.» وقالت الجملة الأخيرة بكل أدب.

«انا آسف، ولكنني سأبقى، قد تكونين من الغباء بحيث تظنين انك قادرة على التصرف وحدك، حتى انك قد تكونين أقنعت ماتيو بأن بإمكانك...»

فسألته: «وكيف عرفت ذلك؟»

«حسناً، انك لم تخبريني بذلك عصر هذا اليوم، يا حلوتي، ولكنني كنت داخلاً بسيارتي إلى القرية، وإذا بي أرى ماتيو يصعد إلى سيارة صهره زوج ابنته، وهو يحمل بيده حقيبة ملابس صغيرة...»

فقاطعته: «وطبعاً، لم تستطع ان تمنع نفسك من التدخل، فتتابع طريقك...»

«... ثم اخبرني بأنك أصررت عليه بأن يذهب إلى بلدة بنزانس ليرى حفيده المولود حديثاً، قائلة بأنك ستكونين على ما يرام وحدك.. وذلك في الوقت الذي يعلم فيه أي أحمق بأن ولادة النعجة تحتاج إلى عمل شخصين.»

أجابت: «حسناً، ذلك فقط لليلة واحدة، فهو رجل عجوز...» قالت ذلك متجهمة وهي ترى كيف استطاع مرة أخرى ان يجعلها في موضع الدفاع.

«هذا ما كنت قلته لك من قبل.»

«... ثم انه قد طال انتظاره لأول حفيد له، ولهذا قلت له...»

«وهكذا طمأنته إلى انك باستطاعتك أن تتدبري أمرك وحدك. حسناً، بإمكاني ان اخبرك بأنه ذهب وهو أسعد حالاً بكثير بعد ما علم بأنني سأمضي الليل هنا معك.»

تملكها ذعر بالغ، لا يمكن على الاطلاق أن تمضي الليل مع زاك، خصوصاً بعد كل تلك الكلمات الفظيعة التي قذف بها الواحد منهما الآخر وذلك منذ ساعات معدودات.

قالت بما يقرب التوسل: «كلا، يا زاك، فأنا سأكون بخير، انا واثقة من ذلك.»

فقال: «آه، اسكتي، من فضلك.» ولكن كان في لهجته شيء من المودة: «فمعلوماتي عن توليد النعاج لا تقل عن معلوماتك، على الأقل، فقد طالما ساعدت والدك في ذلك، أم انك نسيت؟»

كلا، انها لم تنس، كان زاك في السادسة عشرة... في مخزن الغلال نفسه هذا...»

«تعالي، يا تامي وامسكي بهذا، كلا؟ تعالي... ايتها المعتوهة.» وها هو ذا زاك بجانبها الآن وقد امتلأت عيناه حالياً، بحماسة الصبا كما كان دوماً، قبل ان تحل مكانها الشدة والسخرية...

أومأت بالإيجاب على كره منها، ثم اخذت تنظر إليه يجر كيسي تبن، وهو يتابع قائلاً: «وبعد تلك الفترة ذهبت إلى نيوزيلاند حيث عملت في حظيرة للأغنام، هل تذكرين؟»

نعم... طبعاً، وأخذت تفكر في ذلك الغلام العنيد والذي بعد ان نجح في كل امتحاناته دون مجهود يذكر، خرج من

المدرسة، وبكل بساطة تاركاً موطنه رغم غضب والده وثورته.

«لقد ذهبت أولاً إلى اميركا، أليس كذلك؟» سألته هذا رغم انها تذكر جيداً كيف اخذتا، هي وسارا، تستمعان بعينين متسعتين، إلى قصصه عن مغامراته حيث كان عاملاً متنقلاً، حيثما كان هناك موسم حصاد حتى حدود كندا.

أجاب: «هذا صحيح، ثم عدت إلى الوطن مرة أخرى لكي أحاول القيام بواجبي البنوي نحو والدي.»

فقالت بصوت أقرب إلى الهمس: «ولكنك لم تستطع البقاء.»

أجاب عابساً: «كلا، ويبدو أنني لم استطع ان اتخلص من شهوة التجوال، كنت ما أزال أتوق إلى الحركة، الإثارة، الأخطار، ولهذا التحقت بالجيش... وبهذا حصلت على هذه الأمور الثلاثة التي كنت أريدها.»

وألقى بنفسه على اكياس التبن بجانبها، ماداً ساقيه الطويلتين أمامه بينما كان يتابع قائلاً: «وعلى كل حال، فقد اصبح كل هذا شيئاً من الماضي الآن.»

وكذلك سارا كما اظن... كادت هذه الكلمات تفلت من فمها، ولكنها كبحتها في الوقت المناسب، فليس هذا بالوقت ولا المكان المناسبين لصدام آخر معه.

«كيف مرت ولادات النعاج، حتى الآن.»

أجابت شاعرة بالارتياح: «آه، جيدة تماماً، لقد فقدت حملين، وكان التوائم كثيرين، طبعاً، وهذه النعاج الأربع الآن هي الأخيرة تقريباً، وقد احضرتها إلى هنا لأنني ظننتها على وشك الوضع ولكنني...»

«اتعنين كتلك النعجة هناك.» وأشار برأسه إلى واحدة من النعجات رأتها تامسن تدور حول نفسها بضيق وقلق، وإزاء هذا الدليل الواضح، قفزت واقفة، ولكنه كان قد أخذ يخلع سترته ويلقي بها على الكيس.

لكن أثناء ذلك، كانت النعجة قد ولدت حملها بسرعة ودون أي عون خارجي، فحمل زاك المولود الصغير بين يديه برفق بينما أخذت هي تمسح فمه الضئيل من المواد المخاطية، ثم اخذا ينظران إليه وهو يقفز واقفاً على قدميه، ثم يتجه إلى أمه وهو يترنح في مشيته، وعندما أخذت هذه تلعقه، تبادلت تامسن النظرات مع زاك وهما يبتسمان بصمت، انها معجزة الخلق، ومهما كان عدد ما تشاهده تامسن منها، فهي لا تستطيع منع نفسها من الإرتجاف كلما رأتها.

وقف زاك وهو يقول: «حسناً، هناك واحدة دائمة الحركة، اتعلمين، اشعر بأن هذه الليلة ستكون صعبة للغاية، فدعينا نأكل شيئاً.»

وإذ أخذت تامسن تنظر إليه، اخذ يغسل يديه في سطل ماء كان بالقرب منهما، ثم فتح السلة وأخرج منها مرطباناً واسع الفوهة سكب منه حساء في فنجانين ناولها احدهما.

«هاك، تناولي هذا فأنت تبدين وكأنك أرنب هزيلة.» وإذ ترددت، دس الفنجان في يدها، بفروغ صبر، وهو يقول: «إنه حساء الهليون، وانا ما زلت أنكر انه كان المفضل لديك.»

«أنا... حسناً، اشكرك.»

قالت ذلك بشيء من الإستغراب، ثم اخذت الفنجان والذي كانت الرائحة التي تتصاعد منه تسيل اللعاب.

عاد هو يمد يده إلى السلة وهو يسألها: «أتحبين فطيرة باللحم؟»

«آه، كلا، هذا يكفي.»

قالت ذلك بسرعة وهي تراه يزيل الغطاء عن وعاء يحتوي على فطائر ذهبية اللون، كانت تبدو لذيذة للغاية، ولكنها شعرت فجأة بأن عليها ان لا تسمح لنفسها بأن تصبح مدينة له اكثر مما سمحت به هذه الليلة، وتابعت تقول: «ان لدي هنا بعض شطائر الجبن، أتريد واحدة منها؟ ثمة صلصة حارة مع الجبن.»

فقال بابتسامة عريضة مفاجئة: «شطائر بالجبن والصلصة الحارة؟ نعم، من فضلك، انها شيء لا يمكنني مقاومته.»

ناولته واحدة أخذ منها لقمة: «همم... انها لذيذة للغاية، هل هي ما كنت تخبزينه عصر هذا اليوم؟»

«آه، كلا، لقد صنعت هذه منذ يومين.» لم تكن ثمة ضرورة تجعلها تخبره بأن ما كانت تخبزه عصر هذا النهار، كان قد تلف بأجمعه ما جعلها تلقي به في القمامة وهي تحدث نفسها بغضب بأن سبب هذا هو ذهولها عنها وعجزها عن التركيز أثناء زيارته لها والكلمات الغاضبة التي تبادلاها.

استندت إلى الخلف وهي ترشف الحساء الساخن فتشعر به يدفىء كيانها وهو في طريقه ليستقر في معدتها، نظرت إليه خلسة من فوق حافة فنجانها وهو يقضم لقمة أخرى من الشطيرة. انها لا تستطيع ان تفهمه... لا تستطيع ان تعلم ما في داخله على الاطلاق، انهما هما الاثنين، منخرطان

في صراع الموت والحياة لأجل مزرعة ويذرتور ومع هذا فها هوذا مستعد لقضاء ليلة طويلة مرهقة في مخزن غلال بالغ البرودة يساعد عدوته في توليد اغنامها والتي هي ما يجعلها تمنعه من تملك المزرعة.

قطبت جبينها وهي تنظر إلى مقدمة حذائها. كل هذا كان يحيرها تماماً، خصوصاً الرقة والحنان والاهتمام بمصلحة الآخرين وخيرهم، كل هذا يبدو بعيداً تماماً عن طباعه، كل ما عليها لكي تتذكر ذلك هو ان تفكر في سلوكه نحو سارا.

توترت شفتاها، ثم رفعت بصرها فجأة، إذا بها ترى عينيه مسمرتين عليها وفيهما نظرة غامضة زادت في اضطرابها ما جعلها تقول دون تفكير: «ولكن، ما الذي يجعلك تساعدني بهذا الشكل؟»

فهز كتفيه قائلاً: «لا تسأليني، ولنعتبر ذلك لأجل الماضي الذي أمضيناه معاً، وبعد، فقد كنا صديقين على الدوام، أليس كذلك، يا تامي؟ ثم انك فتاة صغيرة شجاعة، رغم تحجر رأسك.»

نظرت اليه تامسن طويلاً، ولكنها لا تريد ان تتشاجر معه هذه الليلة، وبدلاً من ذلك أخذت رشفة من حسائها، ثم قالت بشيء من الجمود: «هذا الحساء لذيذ، هل صنعته بنفسك؟»

فلوى شفتيه: «آه، كلا، لقد أعدته لي مديرة منزلي، قد أحسن أنا العمل المنزلي بوجه عام، ولكنني لم أصل بعد إلى حد طهي الحساء، مع الأسف.»

لم تستطع ان تمنع ضحكة صدرت عنها تنم عن عدم التصديق: «انت تحسن العمل المنزلي؟ انك بالنسبة إلى العمل

المنزلي...» ونظرت حولها تبحث عن شيء تشبهه به: «مثل قط بري يدور هنا في المخزن ليقتل الجرذان.»

«قط بري؟ حسناً، ربما كنت أمسكت ببعض الجرذان ذات يوم، فانتبهي.» قال ذلك يهددها مازحاً، ثم سألها: «اتريدين مزيداً من الحساء؟»

«كلا، شكراً... ربما فيما بعد.»

ومالت برأسها إلى الوراء وعادت تتأمله مرة أخرى، كان يحمل فنجانه بين يديه يحرك بقايا الحساء فيه بذهن غائب وقد قطب حاجبيه، وانعكس ضوء الفانوس الأصفر على قمة رأسه مسبغاً لوناً ذهبياً على اطراف شعره الأسود وملطفاً من تقاطيع وجهه ملقياً عليها لوناً ذهبياً هي الأخرى.

وفي اعماقها، تحرك شيء مبهم لم تستطع تسميته... شعور، احساس... عودة إلى الحياة، وللحظة تملكها شعور هو مزيج من ألم وبهجة بالغين لتتبعه فجأة دموع ملأت عينيها، وإذ تملكها الذعر من ان يرى زاك دموعها هذه فيضحك منها ناعتاً إياها بالحمقاء الصغيرة، اشاحت بوجهها بسرعة وأغمضت عينيها.

«اسمعي، يبدو عليك الانهاك، لماذا لا تذهبين إلى فراشك؟»

ففتحت عينيها وإذا بها ترى زاك مائلاً نحوها، مد يده ليرفعها، وإذ كان ذلك الشعور المبهم ما زال مسيطراً عليها يشعرها بالإرتباك، فقد انتفضت مبتعدة عنه، وسرعان ما عاد إلى وجهه ذلك القناع الجامد النائي وابتعد عنها في الحال، وهو يقول ببرودة: «انك تعلمين انه يمكنني ان اتدبر أمري هنا وحدي جيداً.»

أجابت بحزم: «كلا، فالنعاج مسؤولتي انا ولن اتركها.» وبينما هي تقول ذلك، إذا بها ترى نعجة أخرى في المخاض، ولكن ما ان وقفا يراقبانها، حتى بدا لهما واضحاً انه لن يكون بمثل السهولة التي مرت بها النعجة السابقة.

جلسا بجانب النعجة اكثر من ساعة يشاركانها محنتها المتفاقمة وهي تكافح جاهدة ولكن دون فائدة، إلى ان جلست تامسن اخيراً، القرفصاء على عقبيها، ونظرت إلى زاك وهي تهمس مرتجفة: «لا استطيع احتمال هذا... انها المرة الأولى التي تحمل فيها... انها لن تستطيع الولادة ابداً، انني سأذهب لاستدعاء البيطري.» قالت ذلك رغم علمها بالثغرة التي سيحدثها أجر البيطري في ميزانيتها.

كانت تعلم ان فلاحين كثيرين، ربما فيهم والدها، لم يكونوا يهتمون باستدعاء بيطري لأجل نعجة أو حمل، فالعجول والأبقار غالية الثمن، ولكن الأغنام ليست كذلك، ولكن تامسن لم تكن مشاعرها تتحمل رؤية حيوان يتألم.

ما ان ابتدأت تقف على ساقيها المتخشبتين، حتى هتف بها زاك: «انتظري، ثمة شيء يحدث آه، تباً، تباً تباً، لذلك اظن الرأس قادماً أولاً.»

«سأذهب إذن لأتصل بالبيطري.»

فقال بعنف بينما كان يقف هو أيضاً: «كلا، انتظري، دعيني لحاول، أولاً.» وعندما حملقت فيه، تابع يقول: «اسمعي، انك لن تخسري شيئاً، ففي الوقت الذي يصل فيه البيطري، يكون الأوان قد فات، صدقيني.»

ترددت تامسن قليلاً وهي تعض شفتها، ولكنها ما لبثت ان أومأت تقول: «لا بأس.»

كان زاك قد سبق وخلع كنزته فألقاها على كيس التبن متبعاً إياها بقميصه، ثم أدخل يديه في دلو الماء، وعندما اخذت تامسن تحدق فيه متوترة، اخذ يدعك يديه وذراعيه بالصابون ثم وقف وتقدم اليها بينما كانت هي جالسة بجانب النعجة.

نظر اليها لحظة وعيناه تلتمعان في ضوء الفانوس، وعلى شفتيه شبه ابتسامة، ثم جلس القرفصاء بجانبها، وهو يقول: «كفى، لا أريد بكاءً أو ولولة، وإلا أرسلتك إلى بيتك.»

حدقت إليه برهة بصمت: «انني لا أبكي.» قالت هذا وهي تمسح، خلسة، دمعة سالت على وجنتها.

ولكن زاك لم يكد يسمعها وهو يصرف بأسنانه مقطباً وقد بدا في غاية التركيز، وهو يضع رأسه على ذراعه التي كانت ملقاة على ظهر النعجة، منتظراً ان يتوقف المخاض معها، وعندما سكنت أخيراً، وقد تملكها الإرهاق، دس يده في الحال، وانفاسه تتسارع لما يبذله من جهد.

وأخيراً، سحب يده فنظرت تامسن إليه متسائلة، فهمس برقة: «اظنني نجحت في إدارة قائمتين إلى الأمام، ولكن يا له من حمل كبير عليها ان تنجبه، اننا سنفقده إذا لم نكن حذرين، اسمعي، احضري إليّ حبلاً أو ما أشبه.»

قفزت من مكانها واقفة، ثم احضرت له لفافة حبال دقيقة كانت توجد في المخزن على الدوام، فأخذه زاك منها وأخذ يقيس قطعة منها ثم قطعها بسكين اخرجها من جيبه، ليبللها بعد ذلك، بماء وصابون.

ثم قال باختصار: «هذا حسن، انني سأحتاج إلى عون

لرفعها، ساعديني على رفعها إلى الجدار، هذه الناحية، وبهذا يمكنني ان اسندها بساقي الصحيحة.»

كان قد استلم منها السيطرة على الموقف كلياً، ولكن هذا جعل تامسن تشعر بالإرتياح، أمسكت بالنعجة بينهما، والتي اخذت تثغو محتجة، ثم نقلاها معاً إلى الجدار حيث وضعاها على الأرض بعناية بالغة، ثم امسك زاك وقد بدا عليه التوتر، قطعة الحبل بين اصابعه ويده الأخرى على بطنها، ثم بسرعة ومهارة فائقتين، أدخل يده بطرف قطعة الحبل.

كان شعره قد تهدل على وجهه بينما قطرات العرق تلتمع على جبينه، وخطر ببال تامسن، فجأة أن تتقدم إليه فتمسح جبينه، ولكن ما أن حركت اصابعها، حتى كان قد أخرج يده ثم مسح جبينه بساعده النظيف.

قال لها آمراً: «امسكي بها، وعندما أقول (الآن) اجذبيها بعيداً عني، وبعنف. انتظري... انتظري...» وأخذ الاثنان يراقبان النعجة باهتمام.. «الآن.»

وعندما جذبت النعجة إستند إلى الجدار وجذب طرفي قطعة الحبل.

«لا بأس، إرتاحي.» كان يلهث من التعب، ولكنه ابتسم لها يطمئنها: «سننجح، اتعهد لك بذلك، هل أنت مستعدة؟ والآن... اجذبي مرة أخرى.» فسحبت عدة مرات، وإذا بالحمل.. وكان أسود اللون، ملقى هامداً على الأرض المغطاة بالقش.

جلست تامسن واخذت تدعك جسمه، وتمسح المواد المخاطية عنه، ولكنه بقي هامداً، فحمله زاك وهو يشتم

بصوت خافت ومدّده على ركبتيه ثم اخذ ينفخ في فمه بقوة، ولكن جسده ما زال لا يبدي أية رعشة تدل على الحياة.

«آه، دعه يا زاك، فهو ميت.» كانت خيبة الأمل التي شعرت بها، بعد بهجة العمل بجانبه والنجاح في توليد النعجة، خيبة الأمل هذه كانت لا تحتمل.

فقال ينتهزها: «إخرسي، انني لا استسلم بسهولة.»

وقلب الحمل على ظهره ثم اخذ يمسد قلبه مرة بعد مرة بيدي محترف، ومن خلفه اخذت تامسن تحدق مأخوذة في اصابعه الحساسة، مع قوتها وهي تعمل.

وإذا بها تسمع صوتاً ضئيلاً هو أشبه بصوت قطيطة مولودة حديثاً، تبعته عطسة خفيفة، وإذا بالحياة تدب في الجسم الهامد.

«لقد نجحت.»

والتفت زاك اليها وهو يقول هذا بعد ان وضع الحمل على الأرض، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الفوز، ثم تابع يقول: «ان لديك هنا حملاً صحيحاً قوياً، فهل لك ان تعطيه لأمه؟»

ودون ان تتكلم تامسن حملت الحمل ثم وضعته إلى جانب أمه التي أخذت تلعقه.

ولكنها طوال الوقت الذي كانت تقوم فيه بهذه المهمات بشكل آلي، كانت تشعر بوخز في جسمها وكأنها على وشك الوقوع فريسة للإنفلونزا، كما كان عقلها يدور ويدور بشكل محموم، ما الذي حدث لها؟ فهذه المشاعر التي تملكتها فجأة، هل من الممكن؟...

واظلمت عيناها لدى هذه الفكرة المفزعة... لا، لا يمكن

ان تكون مشاعر المراهقة التي كانت تتملكها نحو زاك، قد عادت بعد كل تلك السنوات الطويلة...

قالت لنفسها بعنف إن هذا غير ممكن... كلا، أبداً، صحيح انها كانت تحبه في طفولتها، وتتبعه اينما ذهب، ثم اخذت تحلم به فيما بعد، في الخيال.. ولكن ذلك كان سرها الحلو المر والذي كانت تحتضنه في اعماقها على الدوام.

ولكن الآن، وبعد كل ما حدث، لا يمكن أبداً ذلك، كلا... كل ما في الأمر ان رؤيتها له الآن، عارياً إلى وسطه بهذا الشكل، أعادت إلى ذاكرتها وكأن الأيام عادت بهما إلى ذلك الحوض في الأرض المعشوشبة حيث اعتادا ان يسبحا معاً، ما أيقظ في نفسها ذكريات طويلة من الأفضل كثيراً لو تبقى مدفونة، هذا كل ما في الأمر، وهذا كل ما عليها ان تسمح به.

الفصل الخامس

«حسناً، لقد نجحنا.»

كان زاك يجفف يديه بالمنشفة وهو ينظر إلى تامسن بمودة ظاهرة ما شعرت معه بالألم في أعماقها. فهي لم تكن الوحيدة التي تحركت مشاعرها لهذا الكفاح المشترك لإنقاذ حياة الحمل. إذ يبدو أنه هو أيضاً عادت به الذاكرة إلى ذلك الزمن الذي كانت علاقتهما فيه من ناحيته على الأقل، رضية خالية من أي تعقيد.

«كلا، بل أنت الذي نجحت، يا زاك وشكراً لك.» وأشاحت بوجهها عنه لا تريد أن تنظر إلى جسمه الرياضي الرائع.

وأضافت ببساطة: «إنني شاكرة جداً في الحقيقة، وأنا... أنا مسرورة لوجودك هنا.»

فهز كتفيه: «آه، إنني مسرور لتمكني من المساعدة.» وابتسم بأدب وهو يشير إلى الحمل بإبهامه.

وعندما ابتسمت مترددة، قال: «إن لدي هنا تيرمس يحتوي على قهوة. هل تريدين شيئاً منها؟»

«نعم، من فضلك.»

ملأها هذا التكلف المؤدب في الحديث، ملأها بحزن عميق. ذلك أن تلك السنوات التي كانا يعرفان أثناءها بعضهما البعض وخلال كل المشاجرات والقتال، كانا على الدوام منفتحين تجاه بعضهما. فحيناً كانا يتقاذفان بالشتائم، وبعد ذلك مباشرة إذا بهما يتصالحان بسرور

وبهجة. والآن حتى بعد تلك المشاركة البهيجة القصيرة قد عاد ذلك الصدع بينهما مرة أخرى وعادا إلى التكلف البارد المصطنع والذي كان، كما هو الآن، اسوأ مما كان عليه عندما كانا يتواجهان بالعداء العنيف المكشوف.

شغلت نفسها بالقهوة. ومن زاوية عينها رأت زاك يرتدي قميصه ومن فوقه الكنزة.

«هل تريد القهوة بالحليب أم بدونه؟»

«بدونه، من فضلك.»

وعندما عادا للجلوس على الأكياس، انتفض قليلاً، ثم مدّ ساقه أمامه.

فقالت دون تفكير: «هل... هل تؤلمك ساقك على الدوام؟»

«كلا. فقط عندما اتعبها. إنني لا أنفك عن معالجتها بالشكل الذي ينمي عضلاتها وما أشبه.»

«آه.» قالت ذلك وهي ترشف قهوتها الساخنة شاعرة بالدفء يسري في جسدها، لقد احسن زاك بإحضار القهوة، فهي عدا عن اسهامها في تدفئة جسمها تساعدها على البقاء مستيقظة بقية الليل...

* * *

«استيقظي، يا تامي.»

«هممم...»

«قلت لك استيقظي.»

فغمغمت: «إنني لست نائمة.»

سمعته يقول هامساً برقة: «كلا؟ لماذا إذن تستعملين كتفي وسادة لرأسك منذ ساعتين؟»

«ماذا؟»

وجحظت عينا تامسن وانتفضت مبعدة رأسها عنه وكأن جسمه نار لسعتها.

ثم نظرت حولها بعينين زائغتين: «كم الساعة الآن؟»

فنظر إلى ساعة معصمه، معرضاً إياها إلى ضوء النهار الشاحب المتسرب من شق في باب المخزن: «حوالي السادسة. أظن بإمكانك العودة إلى البيت الآن.»

نظرت إلى الزاوية حيث كانت نعجتان ما تزالان واقفتين في انتظار الولادة، ثم سألته: «ولكن ماذا بالنسبة إلى النعجتين الباقيتين، الم تلدا بعد؟»

«كلا، وأظن بإمكاننا أن نتركهما لبعض الوقت دون أن يحدث شيء لهما. هيا بنا.»

ووقف مستقيم الجسم، ثم مد يده يمسك بذراع تامسن يوقفها على قدميها. وإذ كانت ما تزال مشوشة الذهن من أثر النوم، سارت معه غير قادرة على المناقشة خارجة من مخزن الغلال عابرة الفناء إلى البيت حيث أخذها زاك إلى المطبخ، فأغلق الباب ثم أدارها لتواجهه.

«يبدو عليك الإنهاك. إصعدي إلى فراشك.»

كان هذا صحيحاً فقد تراكم عليها كل إرهاق الأيام والأسابيع الماضية... هذا بالإضافة إلى عصف هذه المشاعر التي استيقظت فيها أخيراً والتي عليها أن تكبحها. ولكن أن تزحف أمامه متهالكة إلى فراشها، هو علامة ضعف، وتامسن وستماكوت ليست ضعيفة. فقالت بإصرار: «كلا أنا بخير تماماً. إنني... إنني سأصنع إفطاراً لنا.» كانت ستكون أسعد حالاً بكثير لو أنه يذهب قبل أن

تفضح أمامه أية إشارة إلى ما تشعر به من اضطراب في داخلها ولكن إعداد الإفطار له هو أقل ما يمكن أن تقدمه له بعد كل ذلك العون الذي قدمه لها.

فتنهد ساخطاً: «يا لك من صغيرة عنيدة. هل مع كل هذا الإرهاق البادي عليك... ولكن لا بأس فلنصل إلى حل وسط. أنت تصعدين إلى الحمام حيث تغتسلين هذا إذا استطعت رؤية صنبور الماء بعينيك نصف المغمضتين، بينما أغسل أنا يدي ووجهي في الحوض هنا، وبعد ذلك نتناول الإفطار. ولا أريد مزيداً من النقاش...» قال ذلك عابساً وهو يتابع: «إلا إذا كنت تريدينني أن احملك إلى الحمام وأضعك في الحوض بنفسي.»

حدقت فيه لحظة محاولة السيطرة على ما تشعر به من تمرد، ثم ولت هاربة.

* * *

هدأت مياه الحمام من اعصابها فقد أذابت تامسن فيه آخر ما بقي لديها من عطر الحمام والذي كان جاءها هدية في العيد الماضي. لقد انستها المياه الدافئة المعطرة في البداية كل شيء آخر ما عدا المتعة الجسدية الصرفة، ولكنها الآن، لم تعد قادرة على التخلص من هذه الأفكار التي عادت تجتاح عقلها.

هناك، في مخزن الغلال كانت أقنعت نفسها بأن تلك الأفكار المفاجئة لم تكن أكثر من استعادة ذكرى افتتانها وهي تلميذة بزاك، لكنها الآن تجد نفسها مرغمة على مواجهة الحقيقة. والتي كانت أكثر كثيراً من ذلك، فما كانت

شعرت به لم يكن مجرد بقايا ما كانت تشعر به قديماً من افتتان مراهقة، وإنما رغبة انثوية كاملة.

فقد شعرت وهما في المخزن، بحنين بالغ إلى أن يأخذها بين ذراعيه ويسبغ عليها من حنانه قدر ما كان يسبغه على ذلك الحمل الصغير الهش...

خرجت من الحوض وأخذت تنشف جسدها غاضبة. كان ما تشعر به جنوناً، جنوناً صرفاً. كيف تفكر في ذلك وهي تسعى إلى مقاومة زاك والاحتفاظ بحقها في هذا المكان؟ وماذا بالنسبة إلى سارا؟

قفزت هذه الفكرة إلى رأسها طاردة كل الأفكار الأخرى. إن هذا الضعف الذي جعل هذه الأفكار تراودها لهو أسوأ خيانة منها لذكرى سارا.

كانت واثقة من شيء واحد، وهو أن تكون تحت في المطبخ اكثر احتراساً لنفسها فقد كان زاك يعرفها إلى درجة لم تكن لتخفي عليه هذه الأحاسيس المخيفة التي أخذت تتملكها نحوه. ولكن إذا استطاعت فقط أن تقوم الآن بدور جيد، لاستطاعت أن تعود إلى السيطرة على نفسها عندما يلتقيان.

وجاءها صوت زاك من أسفل السلم: «تامي!»

«نعم؟»

«هل يمكنك المجيء؟ أنت مطلوبة.»

«لن أتأخر...»

«كلا، بل الآن.»

«ما الذي حدث؟» وترددت لحظة... أتراه أحرق الطعام؟

ثم ارتدت معطفها المنزلي بسرعة وأسرعت بالنزول.

كانت فتحت باب المطبخ قبل أن تدرك أن زاك لم يكن وحده، فلم تستطع التراجع. كان يتحدث إلى جاك بيسلي، ساعي البريد المتوسط العمر والذي يدور في كافة أرجاء هذه المنطقة الريفية بعربته الفان. واستدار الرجلان ينظران إليها وهي تتقدم ببطء، يتملكها شعور مخيف بأنها بوجهها الذي شعرت به يتوهج حرجاً لمظهرها بثوبها المنزلي وشعرها الأشعث المشوش، بأنها تبدو بأبلغ صورة لفتاة مذنبة. حسناً، ليس عليها سوى المكابرة الآن، وبمساعدة زاك.

«صباح الخير يا جاك. إنك مبكر.» ثم منحته ابتسامة مشرقة.

«صباح الخير، يا تامس.» أتراها أحست في لهجته نبرة ذات معنى؟ وتوترت شفتاها بينما كان هو يتابع متهكماً: «كانت ليلة متعبة، أليس كذلك؟»

انتظرت من زاك أن يهب لنجدتها، ولكنه كان يعود للجلوس على كرسيه ويداه في جيبيه.

ردت على الرجل بهدوء: «نعم، كانت كذلك حقاً. فقد كان ماتيو مسافراً، فتكرم السيد برنشارد بتقديم العون لي في توليد النعجات.»

وألقت نظرة على زاك تلتمس منه اثبات قولها هذا، ولكن الذعر تملكها وهي تراه يجلس على كرسيه بكل ارتياح دون أدنى محاولة لمساعدتها. كيف يمكنه ذلك؟ ورمقته بنظرة قاطعة كالسكين، ثم عادت عيناها إلى ساعي البريد والذي كان يبدو عليه التعطش إلى معرفة المزيد.

«من حسن حظي أنه كان هنا، لأننا صادفنا حالة ولادة صعبة جداً، ولولاه لماتت النعجة والمولود.»

فقال الرجل بوجه جامد: «هذا حسن. هذا حسن.» ورأت هي أنه لم يصدقها، فقالت له ببرودة: «سأحضر إليك فنجان شاي.»

«آه، كلا لا تزعجي نفسك.» تزعج نفسها؟ إنها لا تتذكر مطلقاً مرة رفض فيها جاك فنجان شاي. وكان هو يتابع قائلاً: «إذا تكرمت بوضع توقيعك على استلام هذه الرزمة. إنها المجموعة الثانية من اللقاحات.»

ثم ناولها وصل الاستلام مع قلم، فاستدارت إلى المائدة لتوقعه وتواري عنه وجهها المتوهج.

«حسناً، شكراً يا جاك.»

«شكراً يا تامس. وداعاً يا سيد ترنشارد.»

وقفت جامدة إلى أن أغلق الباب خلفه، عند ذلك استدارت إلى زاك بعنف: «حسناً، أشكرك جداً.»

«لماذا؟»

«إنك تعلم جيداً لماذا، يا زاك ترنشارد ما الذي سيقوله ساعي البريد الآن... إنك في السابعة صباحاً، تتناول طعام الإفطار هنا وكأنك في بيتك، بينما أنا في ثياب البيت. أليس كذلك؟» وارتجفت لهذا الحديث الذي سيدخل كل مزرعة وكوخ في منطقة عمل جاك.

«أجلسي ولا تكوني حمقاء.»

«حمقاء؟ لقد تدمرت سمعتي. أتعلم ذلك؟»

«آه، يا تامي. لا تجعلي من الحبة قبة. لم يعد أحد يهتم بالسمعة بعد الآن.»

«حسناً، أنا أهتم بذلك.» وضربت المائدة بقبضتها. «وعلى كل حال، فأنت تعلم جيداً ما الذي سيظنه الآخرون.»

«كلام فارغ. وما الذي يدفعهم إلى الظن؟»

«كما سبق وقلت لك، لأنك هنا في هذا الوقت، وأنا بهذا الشكل.» ونظرت إلى نفسها بغضب.

فانفجر ضاحكاً: «لا تكوني سخيفة.»

وتلاقت نظراتهما، وإذا بالإتزان يبدو على وجهه وهو يقول: «حسناً، إنك تعلمين بأنك لست إلا...» وسكت ثم عاد يقول: «إننا نعرف بعضنا البعض طوال حياتنا، فأنت كأختي الصغيرة.»

حدقت تامسن إليه وقد جمدت كلماتها الملتهبة في حلقها. طبعاً، فالحق معه. إن مشاعرها الجديدة نحوه، ولهفتها إلى حجبها عنه، ما جعلها تتصرف بمثل هذا الغضب. فتاة صغيرة نحيلة في معطف التلميذة المنزلي الفضفاض هي الصورة التي رآها بها زاك وساعي البريد. وقد كانت حمقاء إذا تخيلت شيئاً آخر.

كان هذا أفضل كثيراً، على كل حال، وأكثر أماناً بكل تأكيد. لقد ازداد شعورها بالخزي والإرتباك الآن... فكيف لو اكتشفت يوماً ما الحقيقة؟ وأنها لم تعد تلك الفتاة الصغيرة التي يظنها، وإنما امرأة ناضجة بكل مشاعر المرأة.

لا بد أن زاك لمح شيئاً في وجهها، لأنه أخذ يشتم، ثم تقدم نحوها قائلاً: «آه، يا تامي لماذا تثيرين اعصابي دوماً؟ لقد امضينا، نحن الاثنين، ليلة مرهقة فاجلسي وتناولي الإفطار.»

وسحب كرسياً اجلسها عليه برفق، ثم تحول إلى الموقد بينما جلست هي ورأسها بين يديها مستمتعة بدفء

المطبخ، وهي تسمع بشكل مبهم صوت قرقعة الاطباق وتشم رائحة القهوة العبقة وترى زاك وهو يروح ويجيء.

لكن عندما انزلق رأسها ليستقر على ذراعها مستريحاً على مرفقها لم تعد ترى من زاك سوى خيال غامض، وهذا الخيال كان واقفاً بجانبها الآن يتحدث إليها ويرفع رأسها. ولكن الإرهاق كان قد سيطر على جسمها. ثم شعرت بذارعين قويتين تلتفان حولها، فأخذت تغمغم باحتجاج، ولكن ما أن رفعها عن الكرسي حتى استسلمت إلى نوم عميق.

* * *

أخذ عصفور يغرد على غصن شجرة الكمثرى العتيقة خارج نافذة غرفة نومها، بينما كانت أشعة الشمس تتسرب من خلال الستائر. فانقلبت تامسن على ظهرها، وعندما تذكرت كل شيء، جمدت نظراتها على السقف فوق رأسها.

جاك... جاك بيسلي... وتصرفها الأحمق... ثم اليدان اللتان حملتاها دون جهد. وسمحت لنفسها للحظة واحدة، بأن يتملكها السرور للذكرى... ولكنها ما لبثت أن طردت هذه الصورة من ذهنها، ثم جلست ونظرت إلى ساعة الجدار. وإذا بالذهول يتملكها وهي ترى أن الوقت كان ظهراً. لكن المنبه كان مقفلاً، ولا بد أن زاك قد فعل ذلك كما كان وضع عند قدميها زجاجة ماء حار كان قد برد الآن، يا له من شخص مليء بالمتناقضات. فهو خشن، عنيد قاسي ومع ذلك بدا لها الليلة الماضية من الحساسية والحنان ما جعل عينيها تغرورقان بالدموع.

وعندما نزلت من السرير وهي تغالب تلك الدموع، ادركت بارتياح بالغ أنها ما زالت ترتدي معطفها المنزلي... ولكن، ولوت شفتيها بمرارة حتى ولو كان حملها إلى غرفتها فهي لن تكون في نظره سوى حمل مولود آخر يستجلب الشفقة.

أما بالنسبة إليها، فعليها أن لا تسمح لنفسها بأن تعتبره شيئاً سوى عدوها. فبعد الليلة الماضية اصبح من السهل أن تتخلى عن الحذر. ولكنها كانت تعرف زاك جيداً بحيث أنها كانت تعلم أن لا شيء يمكن أن يغير ما سبق وصمم عليه بالنسبة إلى المزرعة.

أما بالنسبة إلى شعورها نحوه، حسناً بإمكانها أن تعترف به ثم تعرضه لضوء النهار لكي ترى ما هو في الحقيقة، ولكن عليها، بعد ذلك، أن تعيده إلى حيث كان في الظلام، اما ان تدعه يتطور إلى أي شيء آخر، فهذا ما سيدمرها كما دمر سارا من قبل، عندما احبت زاك فدمرها هذا الحب.

* * *

«آه، كلا.»

ونزلت تامسن من مقعدها في الجرار. لقد تعطلت الرافعة الميكانيكية مرة أخرى، وهذا يعني، مرة أخرى، قائمة بأجر التصليح من كاراج جيم هيويت.. وقد يكون الأمر اسوأ من ذلك فهذه المرة لن يكون بإمكان جيم أن يصنع شيئاً. فسيارة البيطري التي ينقل بها الحيوانات هي أفضل حالاً ومظهراً من هذا الجرار الذي ينبغي أن يوضع في المتحف الزراعي للأدوات الزراعية القديمة.

ولكن، ليس هذا بالأمر الهام... إن بإمكانها أن تملأ العربة المقطورة بنفسها، وبسرعة، وذلك قبل أن يعود ماتيو من حيث كان يتفقد المواشي، ويصر على القيام بالمهمة بدلاً منها. والتقطت المذراة، وهي تسد أنفها اشمئزازاً، ثم أخذت تتسلق ربوة السماد المتعفن.

كانت قد أمضت في هذا العمل نصف ساعة أو نحو ذلك، عندما لمحت من زاوية عينها فارسين في الطريق القديم المؤدي إلى المراعي، والتي تمتد بمحاذاة جدار فنائها مباشرة. كانا ما يزالان بعيدين تماماً، ولكن واحداً منهما كان يجلس على جواده الأسود مستقيماً باعتداد واضح.

نظرت إلى الرداء الخشن الذي كانت ترتديه، وإلى الحذاء الطويل وكنزتها الكحلية المرفوعة الكمين إلى كوعيها، ثم تصلب جسمها وهي تتأوه بأسى ولكنها، بشكل ما، قاومت دافعاً لها لأن تلقي بالمذراة، ثم تهرب لتختبىء في مخزن الغلال. وبدلاً من ذلك، شددت قبضتها على المذراة، ثم تابعت العمل.

سار العمل بهمة ونشاط، ولم يسبق قط أن كان حمل السماد من قبل أفضل مما كان يبدو الآن. فقد كان الجدار هنا من الارتفاع في هذه الزاوية من الفناء بحيث يمكن للفارسين المرور دون أن يلحظاها، هذا إذا أخذت تعمل بهدوء كامل.

«صباح الخير، يا تامسن.»

رفعت بصرها بالرغم عنها لتجد نفسها تتبادل النظرات مع زاك. كان جالساً على السرج بشكل جانبي وقد أراح يده على قمة الجدار وأخذ ينظر إليها بطريقة تملكها فيها نفس

الشعور الذي كان تملكها عندما عثروا عليها، وكانت في الخامسة من عمرها، وهي تبني بيوتاً من مسحوق الفحم.

وتمتمت تجيب كارهة: «صباح الخير.»

نظرت إليه بسرعة ثم حولت عينيها إلى مرافقته وسرعان ما عادت تنظر إلى ملابسها هي، وهي تتأوه في داخلها.

كانت المرأة قد جاءت حديثاً إلى القرية، وقد رأتها تامسن مرتين أو ثلاث فقد ومن بعيد، إحدى تلك المرات في مكتب البريد حيث كانت خارجة منه، ومرة أخرى مستقلة سيارة رياضية خارج البيت المغطى بالقرميد الأحمر الذي اشترته. وفي كل مرة كانت تبدو بالغة الأناقة حتى في نظر تامسن التي لم تكن تهتم بالاناقة فكانت تبقى حوالي العشر دقائق بعد رؤيتها لأناقتها تلك، يتملكها حنين داخلي مؤلم.

وهذا الصباح، كانت المرأة ترتدي بنطلون ركوب رائعاً من قماش الغبردين المصفرّ اللون وسترة بلون البرقوق، بينما كانت تغطي شعرها المنظم قبعة قاسية. وكذلك كان زاك قد استحال إلى رجل بالغ الأناقة في بنطلون ركوب وسترة أسودين بالغي الأناقة مع القميص الأبيض. في الزمن الماضي، لم يحدث قط أن رآه أحد في ملابس كهذه، فقد كان لعدم اهتمامه بالمناسبات الرسمية، يعتبر الملابس الخاصة بركوب الخيل أشياء متكلفة. فكان يشعر بلذة خبيثة في التسبب بصدمة للرجل الطاعن في السن والذي يؤجر كلاب صيد الثعالب عندما يراه يذهب إلى الصيد مرتدياً بنطلون جينز قديم وكنزة رياضية، بينما عيناه تلتمعان بمكر من تحت حافة قبعة الصيد الشائنة السمعة التي يعتمرها.

ولكن ها هوذا الآن يبدو كأي سيد راقٍ من الطبقة العليا. وعندما أخذت تحدق إليه، شعرت بيد تعتصر قلبها بألم وبالشحوب يكسو وجهها.

وانتبهت إلى أن زاك كان يتكلم: «هل سبق لك وتعرفت إلى يولاند؟»

«أنا... كلا.» وأومأت بأدب إلى المرأة التي منحتها ابتسامة دافئة وهي تقول: «مرحباً، يا تامسن.» ومالت عن ظهر حصانها مادة يدها إليها. وبعد لحظة دهشة، مسحت تامسن يدها القذرة بثوبها الخشن وصافحتها.

تابعت يولاند تقول وهي تقلب شفتيها: «لقد عرض عليّ زاك أن يريني المراعي. اتعلمين أن لي هنا الآن حوالي ثلاثة أشهر دون أن أرى شيئاً تقريباً هنا؟»

فأجابت تامسن بأدب: «أحقاً؟ حسناً، دوماً الاستقرار يستغرق بعض الوقت.»

«إننا ذاهبان إلى الشلال الذي كان زاك حدثني عنه... إنه خارج الطريق العام.»

فقال زاك: «إنه وادينا، اتذكرين يا تامي؟ إنه المكان الذي كنا نركب إليه عندما كنا أولاداً.»

أغمضت عينيها لحظة إزاء الألم الذي سرى في كيانها. أيمكن أن يتصور لحظة واحدة أنها ستنسى طوال حياتها ذلك المخبأ السحري الرائع، حتى انهم كانوا يسمونه الوادي السري وقد احتفظوا به سراً غالياً بينهم هم الثلاثة. وها هوذا الآن يكشف هذا السر إلى هذه المرأة الغريبة.

ثم قالت بجمود: «نعم، أذكر هذا.»

«أتحبين أن تأتي معنا؟»

أخذت تحدق إليه. إنه يعلم أن هذا ليس بمقدورها... فقد كانت الدعوة عفوية فارغة كتلك الدعوات التي كان يلقيها إليها منذ سنوات حتى بعد أن لمحت سارا لها بأنه لا يريدها أن تكثر من الذهاب معهما إلى ذلك الوادي. بعد ذلك منعتها كرامتها من التطفل عليهما مرة أخرى، وكان جوابها دوماً، كما هو الآن بالضبط: «إنني مشغولة جداً.»

«حسناً، هل انتهت ولادة النعاج؟»

«نعم، انتهينا من ذلك منذ اسبوع.»

«وكيف حالها؟»

«بأحسن حال.»

أرادت أن تشكره مرة أخرى لمعونته تلك لها، ولكنها لأمر ما لم تستطع أن تأتي على ذكر تلك الليلة، لقد كانت منتبهة تماماً إلى أن عيني يولاند كانتا مسمرتين عليها، فأدركت أن اقل إشارة إليها كفيلة بأن تجعل الدم يندفع إلى وجنتيها.

استقام في جلسته وهو يقول: «حسناً، ما دمت واثقة من انك لن تأتي معنا... هل أنت جاهزة يا يولاند؟»

فاومأت المرأة الشابة، وبعد أن رفع مقبض سوطه بتحية عفوية سار والمرأة تتبعه، منحازاً عن الطريق العام، بينما وقفت تامسن تتابعهما النظر وهي تشعر بغيرة مرة تقبض احشاءها.

وعندما غابا عن النظر أخيراً، عادت إلى عملها، وإذا بها تجد ان حذائها الطويلين قد غاصا في السماد. لو كانت في غير هذا الوقت لضحكت ولكنها الآن عبست وهي تغرز المذراة لتثبت نفسها قبل أن تنزع اول قدم، وتتبعها بالأخرى.

كانت تنزل من فوق كومة السماد بصعوبة عندما جاء ماتيو عابراً الفناء إليها.

«كان عليك أن تتركي هذا لي، يا تامسن.»

«شكراً يا ماتيو، ولكنني استطعت القيام بذلك.»

«هل تلك التي رأيتها مع السيد زاك هي السيدة شالمر؟ إنها شابة تسر النظر حقاً.»

فقالت تامسن وظهرها إليه: «نعم.»

«إذن فقد ذهبا للنزهة على الجياد، أليس كذلك؟ لقد أخذا يخرجان معاً مؤخراً.» وسكت لحظة بشكل ذي معنى. «يقولون في القرية إنها طلّقت حديثاً، لهذا ربما، هما الإثنين...»

فاندفعت الكلمات من فمها: «كيف حال الخراف؟»

«آه، بأحسن حال. لا شيء يستدعي القلق في الحظيرة. نعم إنها امرأة جميلة فالمرأة الانيقة تعجبني تماماً.»

ولم تستطع تامسن إلا أن تمنحه ابتسامة شاحبة توافقه على ذلك، وهي تغرز المذراة في كومة السماد وكأنها تطعن بها دراكيولا.

الفصل السادس

رفعت تامسن بيديها جانبي التنورة الواسعة لثوب السهرة الوردي الذي ترتديه، ثم هبطت درجات المنزل، وفي انتظارها في الظلام أسفل، كان رجل طويل القامة بملابس المساء، برز إلى الضوء، وإذا به زاك، وأثناء انتظاره وصولها كان ينظر اليها مبهوراً، أشبه بشخص كان يسير في نومه فأوقظ عنوة.

وهتف لاهثاً بصوت منخفض: «يا حبيبتي تامي، ما اجملك.» ومال إلى الأمام يتأملها، وإذ اشتبكت نظراتهما رأت المشاعر تضطرم فيهما، ثم جذب حزام ثوبها فانفتح وإذا بها...

وهزت تامسن رأسها بغضب إزاء احلام اليقظة هذه، وانقضت على الشطيرة التي بقيت في يدها حوالي خمس دقائق، تلتهمها بحقد وهي تفكر بيأس، هذا كل ما انا بحاجة إليه... التخيلات العاطفية حول زاك، لقد أمضت معظم الليالي الأخيرة تحلم به، وها هو ذا الآن قد وجد طريقه إلى احلام اليقظة أيضاً.

ولكن التخيلات، بطبيعة الحال ليست سوى وسيلة للهرب من واقع الحياة... وهي لديها الكثير مما تهرب منه الآن... تملكها الأسى وهي تفكر في ذلك، فقوائم الحساب ودوماً هناك قوائم حساب... تتدفق عليها ولا تنتهي أبداً، فالذي يزودها بالطعام وهو الذي طالما صبر عليها، أخذ يلح الآن

في طلب نقوده، وهذه رسالة تلقتها هذا الصباح من مدير البنك يطلب منها ان (تشرفهم) بزيارة لحديث قصير عن وضعها، وذلك في أقرب وقت يناسبها.

ثم هناك ماتيو، وخجلها من انها إزاء عمله الشاق لديها، لا تمنحه اكثر من مصروف الجيب لقد كانت بحاجة حقيقة له أمس عندما وقف اللحام، فاستلم هو الحديث إليه بينما توارت هي...

وأخذت تامسن تحدّق امامها بعينين لا تريان... هل من المعقول انها بعد ان أمضت حياتها كلها في المزرعة، انها لم تخلق لتكون فلاحة؟ تنهدت وهي تعود إلى تقطيب ما بين حاجبيها... والذي ما انفك ملازماً لها هذه الأيام... وشعرت بضغط يكاد يكون جسمانياً وكأن حملاً ثقيلاً يضغط على كتفيها النحيلتين.

تنهدت مرة أخرى وهي تنهي بقية الشطيرة، ثم تتسلق إلى الجرار مرة أخرى ولكن، عندما مدت يدها تدير المحرك، جمدت دون حراك، انه حتماً ذلك البالون الذي يطير بالبخار، والذي كانت شاهدته صباح أمس، كان يطير نحو الوادي متجهاً نحوها، وكأنه برتقالة ضخمة، ومن دون صوت. وعندما رفعت بصرها تنظر اليه سمعت صوتاً أشبه بالفحيح.

عندما أخذت تحدّق فيه مأخوذة، عاد فارتفع في الهواء مبتعداً نحو المنحدرات الصخرية لتل المزرعة، ما اجمله، وما أروع الركوب فيه والأرض منبسطة تحته، حيث ترتفع فوق كل هذه الأشياء مثل قوائم الحسابات غير المدفوعة ورسائل البنك. واخذت تفكر كيف يجيء كل هذا في آن

واحد؟ وهل الحياة تستحق كل هذا؟ وتملكتها موجة من الخوف، أتراني سأرضخ في النهاية، أم انني أركض في طريق مسدود؟

مهما كان الجواب، فإن امامها عملاً الآن عليها ان تقوم به، وهكذا أدارت مفتاح المحرك، ثم اخذت في نثر السماد مرة أخرى.

ولم ترفع نظرها إلا بعد ان شعرت بظل يمر امامها، فأجفلت. كان البالون قد اصبح فوق رأسها مباشرة، لا يكاد يعلو اكثر من خمسين قدماً، ما جعلها تتمكن من رؤية شخصين في السلة التي تتدلى منه، وإذ اخذت تنظر اليه، اجتاز الحقل ثم هبط على رقعة منبسطة من الأرض في الناحية الأخرى من الجدول حيث أخذ يصعد ويهبط بخفة قبل أن يمس الأرض.

خرج أحد الشخصين فأمسك بالسلة، ثم ارتفع صوت يقول شيئاً أشبه بكلمة (تعالي). ولكنها بقيت حيث هي، إلى ان اخذ الرجل ينظر حوله، وهذه المرة سمعته يقول بفروغ صبر: «تعالي إلى هنا يا تامي.»

وكان هذا واضحاً تماماً، فهبطت من الجرار، ثم ركضت نحوهما.

«خذي، امسكي بهذه.» وكان زاك يلهث تقريباً وهو يناضل وحده لكي يقيد هذا الشيء الطائر إلى الأرض.

أمسكت بالناحية الأخرى من الحافة الجلدية، وصرفت بأسنانها عندما كادت ذراعاها تنخلعان والبالون يرتفع فوق الرؤوس للمرة الأخيرة، ثم يعود فيجثم على العشب.

جاءت سيارة جيب مجتازة المرعى، ثم قفز منها ثلاثة رجال، فأمسكوا جيداً بالسلة، ثم أحكموا ربط الحبال، عند ذلك أرخت تامسن قبضتها واخذت تحرك كتفيها بحذر، ثم جرؤت على النظر إلى زاك مباشرة لأول مرة، وكان هو يضحك مبتهجاً وعيناه تتألقان، وعندما بدا لها كعادته كلما أخذ يمزح بطيش، شعرت بتلك القبضة المؤلمة تعتصر قلبها مرة أخرى.

«شكراً، يا تامي.»

وابتسم لها كاشفاً عن اسنان ناصعة البياض بجانب بشرة وجهه السمراء، ولكنها لم تستطع ان ترد له ابتسامته، فقد كان قلبها يخفق شوقاً وحنيناً إليه، وبدلاً من ذلك قالت بشيء من البرودة: «أرجو ان لا تكون أفزعت غنمي.»

«لا أظن ذلك.» وهز رأسه هازلاً، ثم استدار يساعد الآخرين، بينما ابتعدت هي عنهم ووقفت بعيداً ويديها في جيبي سترتها الواسعة وهي تستمع إلى حديثهم المليء بالحيوية عن غلاف البالون وبطانته الداخلية، وكل ما يتعلق به، وكان اهتمامها كله منصباً على زاك، ولكنه كان قد نسي كل شيء عنها... كلهم كذلك في عالم الرجال هذا، وأخيراً، استدارت مبتعدة وقد أرخت كتفاها قليلاً.

«تعالي يا تامي، تعالي لنزهة قصيرة.» وكان هذا أشبه بأمر ملكي، منه بدعوة، ولكنها عندما رأته يتقدم نحوها، ابتعدت قائلة: «كلا، شكراً...»

«آه، هيا... ان الصعود في الجو رائع تماماً.»

فقالت بصلابة: «كلا، الأفضل ان لا أصعد.» كانت لا تستطيع النظر اليه، ولهذا أخذت تتكلم وهي تنظر إلى أزرار قميصه.

«ماذا حدث؟ لا اظنك خائفة؟» وخفض من صوته: «انني اتحداك.»

يا له من ماكر... انه يعلم انها لم ترد تحدياً في حياتها ومن ناحية أخرى، اذا هي وقعت من السلة فستصاب بأكثر من ارتجاج في المخ وخلع الكتف اللذين أصيبت بهما يوم كان تحداها أن تسير على سطح الاصطبل المائل.

قال يستحثها: «هيا، تعالي.»

وعندما جازفت بإلقاء نظرة أخرى عليه، رأته يبتسم لها تلك الابتسامة التي لا تقاوم، وخلفه كان الرجل الآخر يقوم بعمل معقد في مكان الإحتراق من البالون ففكرت في انها على الأقل لن تكون وحدها في البالون مع زاك، والذي سيكون أمراً لا يحتمل، وهكذا سمعت نفسها تقول بصوت ضعيف: «حسناً، ربما...»

وفي اللحظة التالية كان يرفعها من وسطها إلى السلة الخيزرانية المتدلية من البالون، ومنحت الرجل هناك ابتسامة شاحبة فغمزها مشجعاً، ثم عندما رفع زاك ساقه فوق حافة السلة ودخل، إذا بالرجل يقفز إلى الخارج ثم ينضم إلى مجموعة الرجال على الأرض.

«ألن... يأتي معنا؟»

«كلا، ليس هذه المرة.»

ونظر إليها متحدياً، وعندما لم تشأ ان يظن بها الجبن، بقيت في مكانها متمسكة بحافتي السلة بيديها

وهي تحدق إلى أسفل حيث الصخور تتوج قمة تلة ويذر تور.

وبسرعة بالغة كان البالون قد أوصل بقارورة الغاز، وفكت أربطته، ومن ثم سبح البالون البرتقالي فوق رأسيهما مندفعاً نحو السماء.

قال لها زاك: «هل ستمضين الوقت مغمضة عينيك؟»

فردت ساخطة: «كلا، طبعاً.» ثم فتحت أول عين بحذر ثم الثانية وهي تهتف: «أوه ه ه.» في الأسفل، كانت المراعي والحقول قد أصبحت عبارة عن مربعات ضئيلة مبقعة بالغابات هنا وهناك، وفي الوادي كانت قرية سكومب، ومنزل زاك محاطين من كل الجوانب بجر من النباتات الشديدة الإخضرار، والأكواخ ذات السطوح القش والجدران البيضاء، لقد بدا لها بيت زاك أشبه بلعبة طفل، ومن الوراء كانت المراعي تترامى نحو الأفق حيث استطاعت أن ترى الخيط النحيل والذي هو البحر.

هزت رأسها بعجب: «يا للروعة.»

«نعم، انه منظر رائع، انني افكر حقاً في أخذ بعض الدروس في قيادة البالونات.»

فانتفضت وحملقت فيه برعب: «أتعني انك لم يسبق لك ان تلقيت دروساً في هذا الشأن؟»

فابتسم لها قائلاً: «بل تلقيت بطبيعة الحال، فلا تخافي يا تامي كنت أمزح فقط.»

«آه.»

ولكنه عندما زال التوتر الذي كان تملكها، تابع يقول بلهجة عفوية: «نعم، لقد تلقيت درساً أمس... ودزينة قبل

ذلك.» اضاف الجملة الأخيرة بعد ان دق قلبه وهو يرى النظرة التي بدت في عينيها: «وطبعاً أنت لا تظنين ان من الممكن ان اجازف بإحضارك للطيران معي إذا كنت لا اعرف القيادة، أليس كذلك؟»

فقالت عابسة: «لا أدري، وبعد فأنت دوماً تقول لي إنني عقبة في طريقك، وهكذا سيكون حظك كبيراً اذا سنحت لك فرصة للخلاص مني.»

«هذا صحيح، وانا لم افكر في هذا، ربما مِن الأفضل لك ألا تقفي بقرب الحافة... فقد يكون في هذا إغراء كبير لي، وعلى كل حال، ما رأيك في لعبتي الجديدة هذه؟»

«انها لك إذن، أليس كذلك؟» وحاولت ان لا تبدي اهتمامها بذلك.

«طبعاً، أو على الأقل، هي آخر مشاريع أسرة ترنشارد، والتي هي سلسلة من أمور التسلية. وعندما يتعبون من اصطياد الأطباق الفخارية الطائرة وغيرها من أمور التسلية، نحضرهم إلى هنا ساعتين أو نحوها، ثم نرسلهم بعد ذلك إلى بيوتهم وقد حل بهم التعب إلا انهم سعداء، وبعد ذلك عدة مئات من الجنيهات.»

واخذ ينظر إلى الأرض بإمعان: «انظري، ذاك هو رجل لسكومب.»

«أين؟ لا يمكنني رؤيته.»

«انه هناك.» وجذبها لتقف امامه وهو يدلها بإصبعه: «اترين تلك البقعة المزروعة هناك؟ انه...»

«آه نعم، لقد رأيته.» وعندما رأت أخيراً ما يشبه عود ثقاب والذي كان رجل لسكومب، والذي كان عبارة عن

صخرة ضخمة من الصوان، بارتفاع الانسان ثلاث مرات، والذي كان يقف وحده وسط المرج منذ خمسة آلاف عام، ارتجفت كما اعتادت ان ترتجف عندما كانت طفلة كلما رأته أو مرت صورته في ذهنها.

قال: «سرعان ما سيحل عيد الربيع، وهو شيء افتقدته طوال السنوات الماضية، هل ستذهبين لتحتفلي به في ريتوال؟»

فأجابت: «هذا... هذا ما أتوقعه.»

«ان الوزن يخف.»

تركها فجأة وتحول إلى المحرقة يزيد من دفقة اللهب الذي ارتفع هادراً، وبعد ذلك بلحظة، شعرت بالسلة تحت قدميها تتأرجح برفق، ثم ترتفع.

كانت عيناه تتألقان كالفضة، كما كانت الريح تشعث شعره الأسود، نظر اليها وعلى وجهه ابتسامة عريضة: «هل أنت مسرورة؟»

«نعم.»

ولكنها لم تكن كذلك، ذلك انها في ذلك الجزء من الثانية، قد أدركت الحقيقة، متى حدث هذا؟ اخذت تتساءل عن ذلك بتبلد، في أي لحظة بالضبط قفز شعورها نحو زاك دون ان يلحظ، وذلك فوق كل ما يفصل بينهما؟ أو لعل ذلك الحب كان موجوداً على الدوام، منذ كانت طفلة تتملكها مشاعر إعجاب البطل، إلى سنوات المراهقة الحالمة، إلى رغبات المرأة الكاملة الأنوثة؟ مهما كانت الحقيقة فهي لن تتمكن قط من اغماض عينيها عن الحقيقة مرة أخرى، انها تحبه،

نطقت بهذه الكلمات بصمت في اعماقها، ولكن هذه المعرفة لم تدخل إلى نفسها أي بهجة، وإنما فقط نوعاً من الهدوء الغريب اليائس.

امال نقنها إليه يمعن النظر في وجهها: «هل انت واثقة من انك بخير؟ انك شديدة الشحوب، ان بإمكاننا ان نهبط إلى الأرض ساعة تشائين.»

«كـ... كلا، فأنا بأحسن حال.»

ولكن شفتيها كانتا من التصلب بحيث كان من الصعب عليها أن تشكل الكلمات.

أزاحت رأسها إلى الخلف بعيداً عن لمس اصابعه، ثم خفضت بصرها تخفي عينيها خوفاً من ان يقرأ فيهما شيئاً من مشاعرها، كان جزء منها متلهفاً إلى النزول إلى الأرض، بعيداً عنه وعن قربه الخطر هذا، بينما الجزء الآخر يحن إلى البقاء هنا معه، إلى الأبد، في هذا العالم السري الطائر.

وقفا معاً ينظران إلى أسفل، لقد ابتعدا الآن عن القرية واصبحا فوق المراعي.

قال برقة: «طوال وقت غيابي، كنت احلم بهذا المكان، ليس ثمة مكان يضاهيه على وجه الأرض، أليس كذلك؟»

فقالت بلهجة متوترة: «نعم، لا يوجد.»

حتى حبهما المشترك لهذه الأرض، كما اكتشفت بسرعة، يمكنه ان يسبب لها عذاباً عنيفاً.

«تذكري، من خلال اسابيع قليلة سأتمكن من الطيران فوق مختلف التضاريس الطبيعية والبلدان.»

«أحقاً؟»

«نعم، سأتمكن من الطيران فوق وادي النهر الكبير.»

«أين يقع هذا؟ في امريكا؟»

«نعم، هذا صحيح، ان زميلاً سابقاً لي في الجيش يدير بعض انواع الإجازات المغامرة، وأنا أفكر في عقد صفقة معه.»

«إذن، فسترحل بعد وقت قصير؟» وتملكها شعور هو مزيج من الرجاء العنيف والوحشة.

فنظر اليها ساخراً: «نعم، ولكن لا تقلقي، فسأعود خلال أسبوع.»

قالت وهي تغرز اظافرها في الجلد الذي يكسو حافة السلة: «إذن فقد جئت إلى هنا حقاً لكي تبقى، هذه المرة؟»

فقال ببرودة: «طبعاً، وقد سبق واخبرتك بهذا، أليس كذلك؟»

«نعم، ولكن...»

«ولماذا لا أعود؟»

«لا أدري، اظن ان حماستك، في أغلب الأحيان، لا تدوم طويلاً.»

«آسف، إذ أخيب املك، ولكنني لم أغير عقلي، انني هنا لأبقى من الآن فصاعداً، وإذا كنت تتساءلين، نعم، فقد تصالحت مع والدي. ان هذا لا يعني اننا سنصبح صديقين حميمين، بالضبط. ان المرارة السابقة ما زالت موجودة بيننا، ولكننا عقدنا ما يمكنك ان تسميه (هدنة غير مسلحة).»

«وكيف... كيف حاله؟»

لقد شعرت تامسن، بالرغم منها، بشفقتها تتحرك نحو

ذلك الرجل الذي كان يوماً ما، رجلاً في غاية الحيوية والنشاط، فأصبح الآن طريح الفراش.

أجابها: «انها جملة معتادة، كما اظن أليس كذلك؟»

«آسفة، يا زاك.» لقد سمعت نفسها تقول كلمات لم تكن تتوقع قط انها ستتلفظ بها.

«حسناً، انني أقوم نحوه بكل ما استطيعه، فهو في مستشفى خاص ممتاز هناك في بلدة توربای، ويحظى بعناية كاملة وغير ذلك، وأذهب لزيارته كلما سنحت لي الفرصة، لقد كنت هناك الليلة الماضية، وفي الواقع...» وسكت قليلاً: «كنا نتحدث عنك.»

«عني أنا؟»

«نعم، ويبدو ان كلامك كان صحيحاً، ولا أدري ما إذا كان ضميره قد استيقظ وأخذ يخزه، ولكنه اعترف الآن بأن والدك قد تعرض إلى... نوع من الضغط لكي يشتري المزرعة.»

«حسناً، هذا كرم اخلاق من والدك.»

لم تغب عن زاك المرارة التي بدت في لهجتها، ولكنه وضع إصبعه على شفتيها برفق يمنعها من الكلام وهو يتابع: «وهكذا... قررنا أن من العدل ان نزيد المبلغ الذي عرضناه عليك.»

«ماذا تعني؟»

«سنعطيك ما كان والدك دفعه ثمناً للمزرعة منذ أربعة اعوام... وهو ثمن أعلى كثيراً من الثمن الذي تستحقه في الوقت الحاضر.»

«كلا.»

فقطب حاجبيه بعنف: «وما السبب في ذلك؟»

«لأنني لا اتسول الإحسان، هذا هو السبب.» أدركت انها بعد ان تهدأ وتتعقل، ستندم على جنونها هذا، ولكن كرامتها لم تسمح لها بالسكوت عن فكرة قبول الاحسان من آل ترنشارد وخصوصاً زاك منهم.

فضرب جانب السكة بقبضته: «انها كبرياء آل وستماكوت اللعينة، مرة أخرى.»

كادت تقفز مذهولة لإدراكه ما تفكر فيه، فدست يديها في جيبي سترتها الواسعة، بعنف وهي تقول: «نعم، اذا شئت، ولكن لا شيء قد تغير، على كل حال، فإن المزرعة ليست للبيع.» لقد أرغمت نفسها الآن على نبذ كل شكوكها ومخاوفها التي تملكتها عندما توقعت الهزيمة.

تقدم زاك نحوها بغضب هائل تملكها لرؤيته الرعب من ان يمسك بها ويقذفها من فوق جانب السلة، ولكنه بدلاً من ذلك، أمسك بها غارزاً اصابعه بقسوة في كفيها، وهو يلهث، ما زاد في رعبها... ولكن لم تدم ثورته هذه سوى لحظة شعرت معها بغضبه ينحسر واصابعه تتراخى وهو يطيل النظر اليها، ثم يتمتم برقة متناهية: «تامي.»

منذ فترة قصيرة فقط، أدركت انها تحبه، فأغمضت عينيها تستمتع بهذا الاحساس العذب الذي احدثته رقته هذه في كيانها.

أتراها تسلم قلبها له... وبعد ذلك أرضها؟ فتحت عينيها فجأة وابتعدت عنه تضغط بجسمها على حافة السلة المتماوجة.

«أظن...» كانت اسنانها تصطك ما جعل من الصعب عليها

اخراج الكلمات: «اظن هذه طريقة أخرى لآل ترنشارد في الاقناع الودي.»

«ما الذي تعنينه؟» وتوهج وجهه غضباً.

«أعني انك تجعلني، بأسلوب التحبب والتودد، هذا تجعلني أذعن.»

فأطلق ضحكة هازئة: «قد أحاول فعلاً تجربة تلك الطريقة لو انك كنت امرأة حقيقية... ولكنك حسناً... إنني أضيع وقتي مع طفلة مثلك، أليس كذلك؟»

ثم دس يديه في جيبه، وأدار لها ظهره ومضى ينظر إلى المروج تحته.

أخذت تامسن تحدق في ظهره ذاك، لحظة طويلة، وكانت الريح قد ابتدأت بالهبوب جاعلة عينيها تدمعان، فلو التفت إليها الآن، لظنها تبكي، كانت ما تزال تشعر برقة صوته المليء بالعاطفة وهو يلفظ اسمها، وتملكها الشوق إلى التقدم منه خطوة ثم تهمس له قائلة: «انك مخطىء، يا زاك، فأنا لم اعد طفلة... بل أنا امرأة حقيقية.»

ولكنها بدلاً من ذلك، زمت شفتيها بشدة وأشاحت بوجهها هي أيضاً، هذا هو السبب إذن لإحضاره لها إلى هنا، بالطبع، لم يكن ذلك للاستمتاع بصحبتها، كما سمحت لها حماقتها بأن تعتقد، وإنما لجولة أخرى في معركته معها، انه يريد ان يحتجزها في مكان محدود لا يمكنها الهرب منه، ومن ثم يعيد الكرة مرة أخرى...

رأته يستدير مقترباً منها: «اسمعي، يا تامي، انني اعلم كم يعني ويدرفور، أعني البيت، بالنسبة اليك، فهو يحمل لك

ذكريات كثيرة، وصدقيني انني لا أريد ان اخرجك منه بالقوة.»

نظرت إليه بحذر، كانت لهجة مخلصة تماماً... ولكن ما الذي يقصده الآن؟

وكان هو يتابع قائلاً: «ما قولك في ان تبقي فيه، على الأقل في قسم منه؟ إن بإمكاننا ان نحول قسماً منه إلى شقة مختصرة مكتفية بذاتها، ان بإمكانك ان تبقي فيه، وتشتغلي عندي.»

«ماذا سيكون عملي عندك، بالضبط؟»

«حسناً، كل الأعمال الكتابية عندي غارقة في الفوضى.» وابتسم بأسى: «ان كل ما انا بحاجة اليه هو فتاة تنظم اشغالي، ان بإمكانك ان تتخذي مكتباً في منزلي و...»

فقاطعته تقول: «ولكنني لا احسن شيئاً من اعمال المكاتب.» لقد اذهلها عرضه المفاجىء هذا، ولم تستطع التفكير بذهن صاف.

«انني أذكر انك كنت درست مسك الدفاتر والطبع على الآلة الكاتبة في المدرسة.»

فهزت رأسها بعنف: «كلا.»

«قد يصعب عليك تذكر ذلك في البداية، ولكنك ذكية وسرعان ما يستقر بك الأمر.»

«كلا، لا أريد العمل في مكتب.» ولكن هذا لم يكن السبب، وإنما فكرة رؤيتها له كل يوم إذا كانت ستعمل معه، وجعلتها هذه الصورة تقول بصوت غاضب: «انني فلاحة و...»

«ماذا حدث لكل أبقارك؟»

«ماذا؟»

وعندما اخذت تحدق إليه، شاعرة بالإرتباك لتغييره مجرى الحديث، أشار إلى اسفل، فأدركت ان تغيير اتجاه الرياح قد أعادهما إلى موضوع المزرعة، فأجابت باختصار: «لقد ذهبت.»

«آه...» وأمال وجهها إليه مرغماً إياها على النظر في عينيه وهو يقول: «اظنها أول ما كان عليك ان ترسليه إلى الذبح، أليس كذلك؟»

«نعم.»

فنظر اليها وعلى فمه شبح ابتسامة: «انني اتذكر كيف كنت تختبئين على الدوام في الخزانة تحت السلم، ولكن لا يمكنك الاختباء الآن، أليس كذلك؟»

وعندما لم تجب، تابع يقول بأسف: «وماذا ستفعلين عندما تكبر الخراف عندك وترسلينها إلى الذبح، وعلى الأخص ذلك الحمل الأسود الذي ولد على أيدينا مثلاً؟»

فقالت من خلال اسنانها: «إخرس، تباً لك.»

هز رأسه حزناً لأجلها: «لن تكوني فلاحة حقيقية أبداً، يا تامي... وانت تعرفين ذلك.»

أخذت تفكر في ما بإمكانها ان تفعله غير هذا، وكادت هذه الكلمات تخرج من فمها، ولكنها كبحتها.

وفجأة، أشار بإصبعه إلى أسفل: «انظري إلى هناك، قد يصعب عليك رؤية ذلك من الأرض، ولكن من أعلى يبدو لك واضحاً، تلك هي أرضك... الغابة والتلة يدخلان إلى أرضي كالسهم، ان عليك ان تري أننا لا نستطيع العمل بنجاح وهذا يشقنا إلى اثنين.»

وقفت دون حراك، تحدق إلى اسفل حيث كانت سيارة لا تكاد ترى، متوقفة في مكان بالغ الوعورة. لقد كان عنيداً للغاية، فهو سيتابع ويتابع... كما تبلي المياه الصخر، إلى ان يحصل على ما يريد، فهو زاك ترنشارد، الرجل الذي لا يفكر أبداً في الإذعان حتى يصل إلى غايته بأي شكل كان، وتملكها الذعر وهي تفكر في أن قوة إرادتها لا بد ان تذوب في نار عزيمته.

انحنت كتفاها بضعف، ما هي الفائدة من الإستمرار في محاربته؟ وبجانب ذلك فهو سيبقى هنا بقية حياته، فكيف ستستطيع تحمل ذلك؟ انها لن تشتغل عنده... كان هذا على الأقل، ما هي واثقة منه... ولكن رغم هذا فهي ستراه يومياً تقريباً، وأحياناً بشكل مفاجىء لا يترك لها وقتاً لتصنّع عدم الاكتراث به، إنما سيتزوج يولاند... وربما سيكون له أولاد، أليس من الممكن بعينيه الحادتين الذكيتين، ان يدرك، عاجلاً أم آجلاً، ماهية مشاعرها نحوه؟ وقد يجعلها هذا هدفاً لمزاحهما، هو وزوجته، تامي الصغيرة... نعم، كانت تلاحقني دوماً منذ كانت طفلة في الرابعة... سنوات طويلة وليالٍ لا تنتهي.

انها طبعاً ستنساه مع مرور الزمن، تماماً كما نسيت الألم العنيف الذي كان تملكها لفقدانها والدها وسارة، ولوت شفتيها، يا للسخرية المرة في أن الرجل الذي دمّر حظ صديقتها في السعادة، هو الآن...

كان رجاؤها الوحيد هو أن تهرب الآن قبل فوات الأوان، فربما إذا لم تره قط مرة أخرى ستنسى حبها هذا له. نعم، هذا هو الجواب بكل وضوحه وقسوته.

وكان زاك يقول: «انك تعلمين ان كلامي هذا منطقي، أليس كذلك؟» كانت لهجته أكثر رقة الآن، ولا بد انه لاحظ ضعفها، فأخذ يجهز على البقية الباقية من ترددها.

قالت له بتبلد: «منطقي؟ حسناً، ربما...»

فهتف في الحال: «انك لن تندمي على ذلك، يا تامي، انني واثق من هذا.»

ابتعدت عنه وقد أخذ جسمها يرتجف، بينما كان هو يتابع قائلاً: «سأتصل بالمحامي حالما أعود، وأنا سأراه غداً، على كل حال.»

«كلا.» لقد تملكها الذعر، يجب عليها أن لا تسمح له باستعجالها بهذا الشكل، خصوصاً وهي تشعر بكل هذا الضعف.

«امنحني مهلة أيام قليلة افكر فيها، أرجوك، يا زاك... أسبوع واحد، أرجوك.»

عبس قليلاً وهو يقول: «سأعطيك ثلاثة ايام، وإلا فسيكون الثمن حسب الجاري هذه الأيام.»

«لا بأس، ثلاثة أيام.» كان فمها جافاً من اليأس إلى درجة وجدت معها صعوبة بالغة في الكلام: «والآن، أرجوك ان تنزلني إلى الأرض.»

فمد يده يجر المقود بعنف، ومن ثم ابتدآ بالهبوط، وإذ ملأه الشعور بالإنتصار، دماثة وإيناساً قال: «لا بد أن تأتي معي في البالون مرة أخرى قريباً، فقد سرك وجودنا في الأعالي، أليس كذلك؟»

فأومأت برأسها حتى انها استطاعت أن تبتسم، ولكن غليان المشاعر في نفسها منعها من الكلام.

«لقد كنت دوماً رياضية صغيرة رائعة، يا تامسن.»

إستقر البالون بارتجاج خفيف، فنزلت منه، هذا هو ما سينكرها به التاريخ («تامسن وستماكوت الرياضية الصغيرة الرائعة.)»

حدثت نفسها بذلك وهي تتعلق بأحد الحبال، وقد امتلأ قلبها أسى.

www.elromancia.com

الفصل السابع

«لكنني لا استطيع قبوله، يا ليزا.»

واستدارت تامسن عائدة من المرآة إلى صديقتها التي كانت تجلس على السرير واضعة ساقاً على ساق: «كلام فارغ، يمكنك ذلك طبعاً، لقد كنت اخبرتك، بعد وضعي للتوأمين، بأن جسمي لن يعود إلى قياسه السابق أبداً مرة أخرى.»

أخذت ليزا تربت على وركيها العريضين: «لقد ناضلت كثيراً في سبيل ذلك... «ولكن توني على كل حال، يقول انني أحسن الآن بعد ان اكتست عظامي لحماً.» ورغم لهجة الحب التي قالت بها ذلك، إلا ان تامسن لم تستطع ان تغفل نبرة ألم عفوية في صوتها.

تابعت ليزا تقول: «على كل حال، لم يلائمني قط في الواقع، وهو يلائمك تماماً، خذي ضعي الجاكت فوقه.»

وألقت بها إلى تامسن التي ارتدتها طائعة، ثم تراجعت إلى الخلف تنظر مذهولة إلى صورتها في المرآة.

كان شيئاً لا يصدق، كانت تنورتها القديمة البنية اللون والكنزة المكومتين على الكرسي تمثلان لها تماماً اليرقة التي خرجت منها لتوها فراشة جميلة بديعة الألوان، تحت الجاكت السوداء الجرسيه والتي بدون ياقة، كانت بلوزة طويلة الكمين من قماش الساتان ملاصقة لجسمها تماماً.

أبرز لون البلوزة الوردي الصارخ، سمرتها الخفيفة بشكل رائع الجمال، مسبغاً تألقاً على بشرتها وبريقاً في عينيها الخضراوين، وكانت الجاكت السوداء المستقيمة تلتصق بوركيها لدى أي حركة منها، وذلك بشكل بالغ الإغراء.

«تبدين رائعة، يا حبيبتي، صدقيني.»

فاحمر وجه تامسن، ثم ابتسمت وهي تقول: «انه جميل جداً، يا ليزا، ولكنه كان غالي الثمن، ولهذا لا استطيع قبوله.»

«اسمعي، صدقيني إنني لا اسدي اليك أي فضل، فهو من طراز السنة الماضية.»

فكبحت تامسن ابتسامة صغيرة، أهذه هي ليزا أيريس التي لم تكن تسعد إلا بارتداء بنطلون جينز وكنزة، وذلك إلى عهد قريب جداً؟

وكانت صديقتها تتابع كلامها قائلة: «فلا تتعالي، إذن، وإلا اعطيته لمادلين، رغم انها حصلت على ما يكفي من ملابسي حتى الآن.»

«حسناً...»

«انه طبعاً قصير نوعاً ما، فإذا خلعته، سوف...»

«كلا.» سمعت تامسن نفسها تهتف بذلك بعنف، ثم اخذت تمر بيدها على قماش الجاكت الغالي الثمن والمنسدل على بطنها الضامر، وإذ رأت صديقتها تنظر إليها، ابتسمت بخجل: «شكراً، يا ليزا.»

«بكل سرور، ثم الحق معك دعيه على جسمك.» وابتسمت لتامسن مداعبة: «انني سأخرج بك لتتناول الغداء... بعد أن ننتهي من مزين الشعر.»

«آه، ولكن...»

«لا أريد «ولكن» هذه ان بإمكان توني احتمال ذلك، أو... وغمزت بعينها بخبث. «بإمكان دفتر شيكاته احتماله، فأنا لا اقابلك كثيراً، ولهذا علينا ان نغزو المدينة، استعدي إذن بينما اتحدث قليلاً مع مادلين.»

فابتسمت تامسن بشيء من التوتر، ولكنها لم تعد إلى الجدال. فليزا، كما يبدو مصممة على تدليلها، وهي في الحقيقة بحاجة حالياً إلى شيء من الدلال يسعدها.

وقفت تستمع، أولاً إلى وقع الخطوات التي كانت تهبط السلم، وبعد ذلك إلى الحديث العالي النبرة في المطبخ أسفل. ما أخلصها من صديقة! انها في الثانية والعشرين، تكبرها بأقل من عام، وهي أعز صديقة لديها، بعد سارا، منذ ايام الدراسة، وها هي ذي الآن، لديها زوج شغوف بها، ولديه مصنع خاص به في المنطقة الصناعية من ضواحي المدينة، وبيت جميل وتوأمان رائعان في الشهر السادس من عمرهما هما آدم ومارك.

وللحظة واحدة شعرت تامسن بطعنة، لم تتعودها، من الحسد وهي تفكر في نوع حياتها هي، ولكنها ما لبثت ان نبذتها من ذهنها، ان حياتها على وشك ان تتغير... وإلى الأحسن. اما كيف بالضبط، فهي لم تكن واثقة في الحقيقة وهذا هو السبب في اتصالها هاتفياً بليزا لكي تأخذ منها موعداً تزورها فيه في بلايموت.

عصر أمس، بعد تلك النزهة العاصفة في الجو، اعادت الجرار إلى المزرعة، ثم اقفلت الباب على نفسها في بيتها، بعيدة عن ماتيو وبعيدة عن جوس. ثم أخذت تروح وتجيء

في غرفة الاستقبال الشديدة البرودة والتي لا تستعملها أبداً، وهناك بين قطع الأثاث المغطاة بالملاءات لحفظها من الغبار، اخذت تحاول ان تواجه مستقبلها، بعينين يملأهما الذعر.

كان الشيء الوحيد الواضح امامها هو ان رفضها الفوري المذعور للمال الذي عرضه عليها زاك، كان صائباً، فهي اما ان تبقى كما هي الآن، وإما ان تقطع كل شيء تماماً، وبكل عنف، ولكن هنا في هذا المنزل الحبيب، وكل ذكرياتها فيه، كان من المستحيل عليها ان تصل إلى قرار، وهكذا شاعرة بأنها ستختنق إذا هي بقيت في هذه الغرفة اكثر من ذلك، ركضت إلى المطبخ لتتصل بليزا.

* * *

«وكذلك أحضر طبقين من السلطة، من فضلك.» وعندما كانت ليزا تعيد قائمة الطعام إلى النادل، اخذت تامسن تدير ناظريها تتأمل هندسة وزخارف المطعم والذي كان فخماً وجميلاً في نفس الوقت، بحواجزه الشبكية معرشة بالنباتات، مالت إلى الأمام ودعكت بأصابعها ورقة نبات خضراء وبيضاء اللون: «انظري، انها من البلاستيك.»

فمطت ليزا وجهها: «آه، أحقاً؟ ولكن انها تقريباً أحسن من النبات الطبيعي، فهي لا... ان أوراقها لا تذبل.» وقضمت لقمة من الخبز وهي تقول: «يا ليته يسرع بالطعام... فأنا أكاد أموت جوعاً، لقد اعتنى ديريك بشعرك تماماً.»

«هذا واضح، فقد كان لديَّ شعور بأنه لم يسبق له ان عالج شعر أكشعري من قبل، آملة ان لا يأتيه مثله مرة أخرى، شعرت بأنه لن يسكت أبداً عن نصحي بأن لا أهمل قصة وتسريحة بانتظام.»

قالت ليزا وهي تمعن النظر في شعر صديقتها: «ولكنه يستحق كل ذلك التعب، فقد بدوت مذهلة تماماً، فشعرك المكوّم فوق رأسك يبدو رائعاً.»

اخذت تامسن تمر بأناملها المنمقة على شعرها المتألق والذي نظم بشكل حلقات تكومت فوق رأسها.

«وزينة وجهك هذه تلائمك تماماً إذ تبرز لون عينيك، عليك ان تضعي هذه الزينة على الدوام.»

قالت تامسن محتجة: «ولكن الأغنام سيخرجها الخوف مني عن طورها.»

«حسناً، ليس عليك ان تهتمي برأي الأغنام فيك، بعد الآن.»

ترددت تامسن لحظة، ثم قالت: «معك حق.»

وعندما قالت هذا، شعرت بالإرتياح، وكان عبئاً ثقيلاً ينوءبه كاهلها منذ زمن طويل، قد تزحزح قليلاً الآن، لم تكن اخبرت ليزا بالحقيقة كاملة... فقد خافت ان تشعر صديقتها، من النظر في عينيها، شيئاً من حبها لزاك... ولكن ليزا كانت واضحة جداً بالنسبة إلى ما على تامسن أن تفعل.

كان الحق معها، بطبيعة الحال، وقد استطاعت رؤية ذلك وهي بعيدة عن مزرعتها ويذرتور، كما كانت ترجو، فقد كانت المزرعة فوق طاقتها... والشيء العقلاني الوحيد هو ان

تتخلى عنها، ولكن صوتاً همس في داخلها، ولكن ليس هذا هو سبب تركك المزرعة، أليس كذلك؟ انك راحلة لأنك تحبين زاك ترنشارد، هذا صحيح، وماذا في حبي له؟ هل لذلك أهمية؟ كلا، على الاطلاق. كانت تحدث نفسها بهذا غاضبة.

وإذا بها تسمع ليزا تقول: «إننا نحتفل الآن بحياتك الجديدة، يا تامسن، انني اتصورك الآن في تلك الشقة الرائعة التي...» وكانت قد أصرّت على أخذ تامسن لرؤيتها وذلك عندما كانتا في طريقهما إلى مزين الشعر «تشرف على منظر للبحر في منتهى الجمال.»

أخذت تامسن تفكر في انها إذا هي وقفت أيضاً على اصابع قدميها امام نافذة الحمام، فسيكون بإمكانها ان ترى زاوية المرعى في المزرعة، ولكن تامسن لم تلبث ان نبذت هذه الأفكار، فقد كانت ليزا من السرور والرضا، وذلك بشكل صبياني تقريباً، بحيث كانت تخطط لها حياتها لكي ترتاح هي وتبتهج بذلك.

لم تكونا الوحيدتين اللتين تحتفلان، فقد كان هناك اثنان في الركن المجاور لهما، وما أن نظرت تامسن إليهما حتى جمدت في مكانها.

كانا يجلسان متواجهين، ولهذا لم تر سوى جانبي وجهيهما، كانت يولاند ترتدي ثوباً حريرياً منقوشاً بالزهور بينما كان زاك يرتدي بذلة رمادية وقميصاً أبيض، وكان شعره الأسود مسرحاً بشكل أنيق، وانحنى يقول شيئاً وهو يبتسم للمرأة التي معه، ثم عاد يتفرس في قائمة الطعام، وبين حاجبيه ذلك التقطيب الذي تعرفه جيداً عند تركيزه على شيء ما.

اخذت تامسن تحدق فيه، لا تكاد تسمع ثرثرة ليزا، عندما التفت هو فجأة، وكأن تحديقها به قد شعر به بشكل ما، وقبل ان تستطيع ان تخفي وجهها خلف النباتات المعرشة، كان بصره قد وقع عليها، توقف برهة، ولكنه ما لبث رغم التقاء نظراتهما، ان تجاوزها ببصره، ولم تعرف هي ما إذا كان عليها أن تغضب أو ترتاح لذلك... ثم أعاد كل اهتمامه إلى يولاند.

أتراه كان يتجاهلها؟ كلا، فلم يكن في نظراته اليها ما يدل على انه عرفها، فإما ان يكون مستغرقاً للغاية مع المرأة التي بصحبته، وإما وهذا هو الأسوأ، انها هي نفسها لم يعد يعرفها أحد في شكلها الأنثوي الجديد هذا، ولعله لن يعرفها أبداً لو أنها اندفعت الآن نحو مائدتهما، ثم أخذت في خلع ملابسها وإظهار مفاتنها، حتى ولو عرفها، ربما لن يفعل شيئاً سوى الابتسام ببرود، تلك الابتسامة التي تملأها غيظاً، ثم يقول لها انها طفلة حمقاء وعليها أن تعيد ملابسها على جسدها حالاً...

اصبح لمذاق هذه الوجبة اللذيذة، طعم الرماد في فمها، لقد أخذت تامسن تمضغ وتبلع بطريقة آليه ما جعل الطعام في فمها يستوي ومحتويات صفيحة القمامة في مطبخ بيتها، وعندما قالت ليزا: «الا تظنينها فكرة رائعة، يا تامسن.» أومأت بحماسة، وإذا بها تكتشف ان زوج ليزا يجري اتصالات مع معارفه في المدينة لكي يجد لها وظيفة، بشكل مؤقت في البداية، إلى أن تجد وقتاً تؤمن فيه نفسها بشكل دائم.

بدا ان الاثنين الآخرين كانا في معنويات عالية،

وأدركت تامسن، والتي كانت كل خلية في كيانها مشدودة إلى تلك المائدة وشاغليها اللذين كان رأسيهما متقاربين بشكل غير عادي، أدركت انها لم تفهم شيئاً مما كانا يقولانه، إلى ان رفع زاك كوبه قائلاً بصوت واضح: «نخب مشاريع ترنشارد... ونجاحنا المستمر، واستقرار أمورنا.»

«هل أنت بخير، يا تامسن؟»

عادت إلى الواقع من أفكارها البعيدة، لتواجه نظرات ليزا القلقة.

ابتدأت بالقول: «انا...» ثم سكتت.

«هل الجو شديد الحرارة بالنسبة إليك؟ سأنادي من يفتح نافذة.»

«كلا.» قالت ذلك وهي تستقيم جالسة، يجب ان لا تنهض ليزا، ويجب ان لا تنتبه إليهما. «إنني بأتم خير، صدقيني فقط شعرت بشيء من التعب لحظة قصيرة، ولكنني بأتم خير الآن.»

«حسناً، ما دمت واثقة...» قالت ليزا ذلك مترددة، فاستطاعت تامسن بشكل ما، ان تبتسم لها تطمئنها.

كيف أمكنه ان يفعل هذا؟ اخذت هذه الفكرة تدور في رأسها؟ ان يأخذ قبولها بالبيع أمراً مسلماً فيحتفل به قبل ان يسمع جوابها؟ لقد كان منحها ثلاثة أيام تفكر فيها في الأمر، ولكنه لم يزعج نفسه بانتظار جوابها، فقد كان من الثقة بقبولها، وبعدم جرأتها على الوقوف بينه وبين رغباته، كان من الثقة في ذلك بحيث أخذ الآن يحتفل بالنجاح... ومع يولاند بالذات...

ازدردت ريقها والشعور بالغيرة يمزق قلبها ويملأ كيانها... ورأت اصابعها تتوتر على مقبض ملعقة الحلوى، شاعرة برغبة هائلة في أن تقفز على يولاند وتمزقها إرباً إرباً.

أكلت طعامها حتى النهاية وذلك بشكل آلي ودون وعي منها، مجاهدة طوال الوقت، في التخلص من هذا الشعور المدمر بالغيرة والغضب الذي اجتاحها. واخذت تنظر إلى زاك بوجه متحجر، وهو يتناول القهوة بعد الإنتهاء من طعامه، ولكنها وهما يقفان ثم يسير مع يولاند إلى الباب، وبشوق بالغ طبعاً... كما اخذت تفكر، ما لبثت ان تمتمت في داخلها... شكراً، يا زاك... هذا ما يجب ان اقوم به.

* * *

كان فناء منزل زاك مقفراً، وسارت تامسن بسيارتها في الطريق المرصوف بالحصى، ثم توقفت وهي ترى امامها سيارة زاك الرانج روفر، حسناً، لقد عاد على الأقل، لقد استطاع أخيراً، ان يتخلص من يولاند... إلا إذا كانت هي معه الآن في منزله، ولدى هذا الخاطر، تقبضت يدها على مفتاح المحرك، ولكن كرامتها أبت عليها أن تتراجع.

قالت للكلب الذي كان في المقعد الخلفي.

«إبق في الحراسة، يا جوس.» وبعد فهذه أرض عدو... ثم صعدت الدرجات العريضة إلى الباب المحاط بالأعمدة وقرعت الجرس، سمعت صوت وقع خطوات

تقترب فتملكها الذعر على الفور، ولكن صوت مديرة المنزل السيدة ميدوز بادرها قائلاً وهي تفتح الباب: «مرحباً يا تامسن.»

«مساء الخير، يا سيدة ميدوز، هل زاك... السيد ترنشارد موجود؟»

«أظن ذلك، يا عزيزتي، تفضلي بالدخول.»

وعندما دخلت تامسن، إذا بها ترى صورتها في المرآة المستطيلة المذهبة، قلبت شفتيها بجفاء وهي ترى انها حقاً قد أعادت مظهرها إلى ما كان عليه، طوال طريق العودة إلى بيتها، كان غضبها يغلي في داخلها، وما أن وصلت حتى صعدت مباشرة إلى غرفتها... ودون ان تلقي نظرة على صورتها في مرآة الخزانة، خلعت كل ثيابها الجميلة الفاخرة، ثم ارتدت اقدم بنطلون جينز وكنزة لديها، وبعد فهي لا تعدو ان تكون طفلة، رياضية صغيرة جيدة، لا غير والطفلات الرياضيات لا يرتدين ملابس حريرية وتنانير ضيقة.

غسلت وجهها، ثم مسحت بالمنشفة كل أثر للتبرج على وجهها حتى تلاشى كلياً، واخيراً مشطت شعرها وخصلاته الجعدة ثم عقدته إلى الخلف بشكل كعكة، لتأخذ بعد ذلك في تأمل مظهرها برضا عابس، بقيت هناك فقط هذه الخصلات الموشحة بلون أشعة الشمس والتي لا يمكنها تغييرها، وعدا ذلك كل شيء كان كاملاً...

«تفضلي بالجلوس، يا عزيزتي، وسأذهب للبحث عنه.»

وما ان غادرت مديرة المنزل المكان، حتى اخذت تامسن

تنظر حولها في أنحاء الردهة، وقد اتسعت عيناها ذهولاً، فحسب ما كانت تتذكر، فالقصر هذا، وهو المحروم منذ سنوات من المال وذوق المرأة الأنثوي، كان قد اخذ في التدهور... ولكنه الآن... واخذت تتأمل السجادة الصينية السميكة الكبيرة بلوينها الأزرق والبيج، والستائر الحريرية بألوانها المشمشية والبنية، والزخارف الخشبية باللونين الأبيض والمشمشي.

وازداد اتساع عينيها، لم يكن من الصعب عليها ان تتكهن من أين جاءت الأموال لكل هذا، ولأول مرة تدرك، كارهة، مقدار ما عليه ذلك الرجل، زاك من ثراء.

عادت السيدة ميدوز وهي تقول: «انه ليس في المنزل، يا تامسن، ولا بد أنه في الاصطبل، هل آخذك إلى هناك؟»

«آه، كلا، شكراً، فأنا اتذكر الطريق.» وتملكها التوتر، فقد حانت لحظة المواجهة مع زاك، ونهضت واقفة وهي تقول: «سأذهب للبحث عنه.»

لكن الفناء المبلط كان خالياً باستثناء حصان زاك الأسود والذي كان ينظر اليها بإهتمام من فوق باب مربطه النصفي، وقفت مترددة، عند ذلك رأت ان الناحية البعيدة من الاصطبل والتي بقيت متداعية سنوات، أصبح لها نوافذ جديدة الآن، ومن خلالها بدا شعاع من ضوء، إذن، فهو هناك.

تقدمت من الباب الجديد، ومدت يدها إلى المطرقة، ولكن... كلا، ان قرعاً بسيطاً قبل الدخول، سيمنحه استعداداً نفسانياً، وهي تريد ان تباغته، وهكذا أدارت أكرة الباب ثم دخلت، مهما كان ما توقعت ان تراه، إلا انه لم يكن غرفة

رياضية كاملة التجهيزات، لقد ذهبت المرابط والمزاود المتآكلة واصبح هناك جدران مبطنة بألواح خشب الصنوبر، وقد اسندت اليها مجموعة مخيفة كما بدت لها وكأنها أدوات تعذيب من العصور الوسطى، ولكنها أدركت انها أجهزة رياضية.

لم تر زاك في البداية، ولكنها ما لبثت ان سمعت حركة خفيفة في نهاية الغرفة، وإذا بها تراه، كان جالساً مسنداً ظهره إلى زاوية، ثم يندفع اماماً وخلفاً وقد وضع ساقه على حاجز معدني كان يتدلى من كل طرف منه حلقات حديدية ثقيلة الوزن.

طوال طريقها إلى هنا، كانت تتصور كيف ستفاجئه بحضورها، لتنقض عليه وتسحقه سحقاً، ولكنها الآن لم تستطع سوى الوقوف ناظرة إليه، واضعة يدها على قلبها وقد توقف الزمن عن المسير.

لم يكن يرتدي سوى قميص قطني كحلي اللون دون كمين، وبنطلون قصير، كانت الحركات المنتظمة القوية لساقه ترغمه على إصدار شخرة صغيرة في كل مرة كان يدفعها فيها بعنف فتستقيم ساقاه لتصطدما بالحاجز حامل الاثقال، كان يعم الغرفة سكون تام باستثناء ذلك الصوت المنتظم الصادر من حنجرته، وخفقات قلبها البطيئة المتألمة.

وإذا به ودون ما سبب، الا إذا كان قد سمع خفقات قلبها تلك، إذا به ينظر من فوق كتفه.

«تامي؟ ما الذي تفعلينه هنا؟»

توقف فجأة، ثم انزل ساقيه من فوق الحاجز ونهض

واقفاً، ثم اختطف منشفة كانت ملقاة على كرسي، وتقدم نحوها وهو يمسح وجهه، كان جسمه يلمع بالعرق تحت أضواء الفلورسنت، وشهقت وهي ترى أثر الجرح المتغضن والذي كان يمتد من فخذه الأيسر إلى ركبته، ثم يعود فيصعد ليختفي تحت حافة الشورت.

امتلأت نفسها بالشفقة، ولكنها ما لبثت ان نبذت هذا الشعور، ذلك ان زاك ليس بالرجل الذي يقبل الشفقة من احد، كما ان العطف يضعف من رغبتها في عقابه.. والتي ابتدأت تشعر بها تتلاشى، فأخذت تتشبث بها بيأس، قال وهو ينظر اليها بفروغ صبر: «حسناً، ماذا تريدين؟ فأنا مازلت في منتصف التمارين، وإذا توقفت عن ذلك مدة طويلة، فستعود عضلاتي إلى الانكماش.»

«التمارين؟»

«نعم، فأنا اقوم بالتمارين بواسطة هذه الأجهزة يومياً، لقد سبق واخبرتك عنها من قبل.»

كانت عيناه تتحداها ان تتحدث عن اصابته هذه، وبللت هي شفتيها بلسانها ولكنها لم تقل شيئاً.

«اظنك جئت لتخبريني بأنك صممت على الأمر، ولكنني منحتك ثلاثة ايام، ولم يكن بك حاجة الى القدوم قبل الغد.» وكانت نبرة الضيق قد عادت إلى صوته مرة أخرى.

فرفعت عينيها لتلتقيا بعينيه: «ولكنني لست بحاجة إلى ثلاثة ايام، يا زاك، وانت على صواب، فقد صممت على الأمر.»

«ولكن عودتك إلى عقلك استغرقت منك وقتاً طويلاً.» ثم منحها ابتسامة شبه مداعبة، ثم مد يده يتناول معطف

الحمام الذي كان معلقاً على مشجب بجانب الباب، فارتداه: «اتعلمين انك سيدة صغيرة عنيدة الرأس؟»

«نعم، انا هكذا، أليس كذلك، يا زاك؟» كان جزء منها يتلذذ بهذه اللحظة، انها ستلقي عليه درساً قاسياً بأن لا يأخذ قبولها أمراً مسلماً: «وهذا يعني، مع الأسف، ان جوابي هو كلا.»

www.elromanca.com

الفصل الثامن

جمدت يدا زاك لحظة على حزامه الذي كان يعقده، ثم ما لبث أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة باهتة، ثم قال بأسف صادق: «هذا مؤسف. فأنا اعتقد حقاً أن الوظيفة عندي ستلائمك تماماً.»

«إنني لا اتحدث عن عرضك الرحيم عليّ لتلك الوظيفة.»

«آه...» وحدق إليها بعينين قاسيتين كالفولاذ: «وما الذي تتحدثين عنه، إذن؟»

«ظننت الأمر واضحاً لك. أنا لا أريد وظيفة منك... لا أريد شيئاً على الاطلاق.»

علا التجهم وجهه، ولكن تامسن أرجعت رأسها إلى الخلف تبادله نظرة بنظرة، ثم قالت بتمهل زائد: «إنني... لن... أبيع... مزرعة ويذرتور... لك.»

«يا لك من سافلة.»

وعندما تقبضت يدا زاك بجانبيه، تراجعت هي خطوة إلى الوراء ما سبب لها اصطداماً مؤلماً بعجلة للتمرين. وكان هو مائلاً فوقها، قاطعاً عليها الطريق إلى الباب، فنظرت حولها بعنف ولكن لم يكن هنا أحد عداهما... لا أحد يقف بينها وبين غضبه الثائر. فقد كانت من التوتر بمشاعرها المزيجة من الغضب والغيرة بحيث نسيت ما ستكون عليه ردة فعله. وتملك قلبها الخوف.

«أي أفكار دخلت إلى رأسك؟ لقد كنت منذ يومين فقط على أتم الاستعداد للبيع.»

«نعم... حسناً، كان ذلك منذ يومين.» قالت ذلك وقد تملكها الاحتقار لنفسها للهجة الدفاع في صوتها.

«هل لك أن تخبريني بالسبب، من فضلك؟»

فتمتمت تقول: «ليس ثمة سبب، وأنت لن تفهمه على كل حال.»

«وهل هذه كلمتك الأخيرة؟»

«نعم.»

«وماذا ستفعلينه بالنسبة إلى المال؟»

أجفلت للسخرية الواضحة في صوته، ولكنها رفعت رأسها متحدية، وقالت: «لا تقلق عليّ... سأتدبر أمري.»

«لو كنت مكانك لما كنت واثقاً من ذلك، يا تامسن.» قال ذلك عابساً، وبينما كانت تحاول أن تفهم ما إذا كان قوله هذا يتضمن تهديداً لها أم لا، تابع يقول: «أظنك تنوين السير في خطتك غير الناضجة لإقامة مخيم وغرس غابات صنوبر؟»

كان يعلم أنه قد خسر المعركة ما جعله ينحط إلى مستوى الإهانة.

فقالت متحدية: «نعم، سأقوم بذلك في أقرب وقت ممكن.»

فعقد ذراعيه أمام صدره: «في هذه الحالة عليّ أن أخبرك بأنني سأعرقل أعمالك على طول الخط.»

«على أي أساس؟»

«الناحية التي ستقيمين فيها المخيم مثلاً فكري في ازدياد حركة السير التي سيسببها ذلك، وأنت تعرفين حالة الطرق حول القرية. إنها بحاجة إلى التوسيع لكي تستوعب عربات الإقامة التي سيأتي بها الزبائن كما هو المتوقع في النواحي العصرية.»

«حسناً، وماذا بالنسبة إلى خطتك أنت عن دبابات الجيش القديمة والتي ستندفع بسرعة في انحاء الناحية الريفية؟»

«ليس ثمة أي مشكلة، فهي ستكون داخل حدود المطار القديم، وطرق تلك الناحية هي من الاتساع بحيث تستوعبها بسهولة. وإذا لم يكن ذلك، فسأنقلهم إلى الداخل بالبالون.»

فقالت بعناد وقد كرهت منه هذه الثقة البالغة بنفسه: «سنرى. إن مشاريعي ستلقى قبولاً حسناً كمشاريعك على الأقل.»

«لو كنت مكانك لما تملكتني هذه الثقة.» وألقى عليها نظرة طويلة متأملة، ثم سألها: «كم يبلغ عدد اصدقائك في لجنة التخطيط؟»

«لماذا؟ لا أحد طبعاً. آه...» وأقفلت فمها بعد إذ أدركت ما يتضمنه كلامه من معنى.

«بالضبط، وها أنت ذي تعرفين لماذا سينجح مشروعي، ويمكنني أن أقول بشيء من القناعة ان مشروعك لن ينجح.»

كل الثقة، والتي لم تكن كاملة على كل حال، قد تضاءلت إزاء هجوم زاك هذا، لتصبح كتلة صغيرة منكمشة من التعاسة في صدرها. ولكن يجب أن تجعله يرى ذلك. فقد كان صلباً للغاية، اكثر صلابة من ذلك العمود الصواني المسمى رجل لسكومب، وهو سينقض على أية لمحة من الضعف تبدو فيها. وابتدأت تستدير لتخرج.

لكن صوته أوقفها في طريقها وهو يقول بنعومة: «آه، ولكنني لم أكمل حديثي بعد، يا تامي.»

فقالت دون أن تستطيع مواجهة عينيه: «ولكن... ما... ماذا تريد؟»

«سمعت أن لديك مشكلة في سداد قائمة الاغذية.»

فاحمر وجهها غضباً لهذا الاذلال، وقالت دون وعي: «وكيف... كيف عرفت بذلك؟ هل كنت تتجسس على شؤوني الخاصة؟»

«آه، ليس هذا هو الأمر. المسألة هي أن برت فالوس، هذا، إذا كنت نسيت، وهو المموّن لك ما زال أحد المستأجرين عندنا. وأي شيء يؤثر عليه مالياً... من زبون لا يستطيع الدفع مثلاً... فهو يهمني جداً.»

قال ذلك بنعومة رغم شهقة صدرت عنها هي مزيج من الغضب والاستعطاف.

إذن، فهذا هو السبب في أن برت العديم الاخلاق، أخذ يضغط عليها مؤخراً. فهذا... هذا الرجل القاسي يسنده. ازداد غضبها والتوت اصابعها كالمخالب وهي تشعر بالرغبة في أن تهجم على زاك وتخمش وجهه.

ولكنها، بدلاً من ذلك أحنت كتفيها واستدارت مرة أخرى مبتعدة، ولكن صوته البارد لاحقها دون شفقة بكلمات كقطع الثلج: «وعندما تعودين إلي زاحفة على ركبتيك، يا عزيزتي، متوسلة إلي أن اشتري المزرعة، فسيكون العرض الذي كنت قدمته إليك منذ يومين قد انتهى. وسأعطيك سعر السوق حالياً... هذا إذا كنت محظوظة، دون زيادة قرش واحد.»

كانت سيطرتها على نفسها قد وصلت إلى منتهاها، فاستدارت إليه بعنف والقت بنفسها عليه رافعة يديها إلى وجهه لتمزق ابتسامته المتغطرسة تلك.

ويبدو أنه كان قد ظن أنه سحقها بقدميه حتى لم يعد

أمامها سوى الزحف مبتعدة كحيوان جريح، ما جعل هجومها المفاجىء يخرجه عن توازنه... فتراجع مستنداً إلى الجدار، ولكنه أمسك بمعصميها يبعدها عنه مقدار ذراع.

قالت وهي تلهث: «دعني، يا حقير.» خرجت هذه الكلمات منها بصعوبة بالغة، وعندما كان جوابه الوحيد هو تشديد الضغط عليها، سددت إلى كاحله رفسة حاقدة.

«كفى، يا تامي، أيتها المعتوهة، وإلا أذيت نفسك.»

كان يضحك عليها الآن بصراحة، فكان في هذه الضحكة، وإفساده عليها هجومها، ما زاد في غضبها كل مقاومتها هذه له كان لها نفس التأثير الذي لعصفور صغير يرفرف بيأس في قبضته، كما بدا واضحاً لها أنه كان مستمتعاً بكل هذا.

«هل لك أن تدعني أذهب؟»

وسددت إليه رفسة أخرى، فأصابه مقدم حذائها تحت ركبته، فأجفل هذه المرة وأخذ يشتم، وشعرت بقبضته تخف لحظة كانت كافية لها لكي تسحب ذراعها اليمين ثم تسدد بها لكمة إلى ذقنه، ولكنه تجنب قبضتها الصغيرة بجانب يده، وقبل أن تسدد لكمة أخرى كان قد امسك بها مرة أخرى، وهذه المرة بكتفيها.

«كفى، يا قاذفة اللهب، وإلا أريتك ما سأفعله بك.» ولكنه كان ما يزال يضحك.

فقالت وهي تلهث: «هذا حسن. اضربني إذن فهذا ما كنت متشوقاً للقيام به منذ تقابلنا في الغابة أول مرة.» ولكنه بدلاً من ذلك، أخذ يضغط على كتفيها حتى شعرت بهما تكادان

تتحطمان فاستجمعت كل ما بقي لديها من قوة، ووضعت يديها على صدره، ثم تملصت منه مطلقة نفسها من بين يديه، ومن ثم استدارت لتهرب وقد تلاشت من نفسها كل رغبة في القتال وذلك تبعاً لغريزة حماية النفس.

«كلا، إنك لن تذهبي.»

أمسك بها مرة أخرى، يديرها بكتفيها لكي تواجهه. كان ما يزال يضحك منها تلك الضحكة التي تسبب الجنون، فأخذت تحملق فيه من خلال شعرها الذي انفلت من العقدة المزعزعة التي كانت تضمه.

ولكن، إذا بضحكته تبهت فجأة.

«تامي؟» قال هذا وهو يحدق فيها مستغرباً وكأنه لم يسبق له أن رآها قط من قبل. وكان في صوته رقة بالغة غير عادية كما كان في عينيه شيء ما لم تفهمه، ولكنه جعل قلبها يخفق بسرعة.

فقال مرة أخرى، وبنفس تلك اللهجة، في صوته: «تامي.»

رفعت بصرها إليه، فتلاقت أعينهما بنظرة طويلة...

تملكها، في هذه اللحظة، شعور لم تعرفه قط في حياتها من قبل. البهجة، الخوف، الفرح العميق، أم لعله مزيج من هذه المشاعر كلها؟

هذا ما كانت تحلم به دوماً، طوال حياتها كما يبدو، وقبل أن تكبر إلى حد ترى فيه مثل هذه الأحلام... عندما كانت هي وزاك، وسارا...

سارا؟ هل هذا ما كانت تشعر به نحوه هي أيضاً؟ ولكن ليس سارا فقط، بل بولاند أيضاً... ولدى وصول بتفكيرها إلى هذا الحد، أخذت تقاومه بعنف: «دعني، يا زاك.»

خرجت هذه الكلمات من فمها بصعوبة، وأخذت تلهف تحاول التنفس وهي تشعر بالدوار وكأنها خرجت لتوها من قعر البحر إلى سطحه. خفت قبضتيه عن كتفيها، ثم لم يلبث أن تركها مبتعداً، هو أيضاً وهو ينظر إليها مقطباً جبينه وكأنه لا يكاد يراها.

«أتراك ظننتني هي؟»

«ظننتك هي؟ ما هذا الذي تتكلمين عنه؟»

فقالت بصوت مزيج من الألم والغضب: «أتراها رفضت الصعود معك إلى غرفتك؟»

«لا تكوني غير مهذبة، يا تامي، فهذا لا يناسبك. ثم ماذا تعنين بكلامك هذا؟»

عضت شفتيها وهي ترى ملامحه تعود إلى جمودها، ولكن الوقت كان قد فات الآن لسحب كلامها، فأجابت: «أنت ويولاند.. هذا ما كنت اعنيه.»

«أنا ويولاند؟» وأخذ يحدق فيها بتبلد: «لقد خرجت عن عقلك الصغير، كما أرى.»

«لقد كنت هناك... في المطعم. وقد رأيتكما.»

نظر إليها ذاهلاً: «آه، إذن فقد كانت تلك المرأة أنت. لقد فكرت فعلاً بأن في تلك الفتاة المفرطة في التبرج شيئاً مألوفاً...»

«كيف تجروء؟» وأخذ صدرها يعلو ويهبط وقد ثارت كرامتها وهي تقول: «وعلى كل حال، فقد عجبت كيف أنك لاحظت أحداً سواها رغم استغراقك في مفاتنها إلى ذلك الحد.»

كان ما يزال يمسك بذراعها، فنفضتها منه، وهي تقول: «إنني سأذهب الآن وأدعك تفضي إليها بالخبر المحزن.»

«ماذا تعنين بهذا؟»

«أعني فقط أن حفلتكما الصغيرة قد أجهضت. لقد كنت واثقاً من نفسك، أليس كذلك؟... واثقاً تماماً من أنك أزحتني أخيراً.»

«والآن، اسمعي.» كان واضحاً أنه قد عاد يسيطر على نفسه. «مع أن كل هذا لا شأن لك به، ولكن كل ما رأيته، أو ما ظننت أنك رأيته، كان كله خطأ. نعم، كنا نحتفل... ولكن ليس للسبب الذي خطر في بال فتاة عنيدة الرأس و...» وأمسك عن التلفظ بالكلمة الأخيرة، وتابع يقول: «لقد وافقت يولاند على استثمار مبلغ لا يستهان به في مشاريع ترنشارد وكنا قادمين لتونا من مكتب المحامي حيث وقعنا العقد.»

فقالت وقد شعرت بنفسها تتكمش: «آه.»

«إن يولاند هي سيدة أعمال غاية في الفطنة.» وكان معنى قوله هذا إنها يولاند ليست كبعض الناس البعيدين مليون ميل عن تلك الصفات. «فهي بإمكانها أن تحصل على المردود الممتاز من مشروع ما، مع أو بدون مساعدة من أحد.» رمقها بنظرة كريهة، وتابع يقول: «ولكن هذا كل شيء... مجرد علاقة عمل. فبعد زواج سيء وطلاق اسوأ... انتهت من جنس الرجال... وإلى الأبد، كما أظن وهذا يناسبني تماماً، إذ إنني، حسب خبرتي تعلمت أن العمل والمتعة لا يتلاءمان.»

نظرت إليه تامسن بارتباك. لقد فعلها مرة أخرى وذلك بسحب البساط من تحت قدميها، فإذا هي سمحت لنفسها بإظهار الضعف أكثر من ذلك، فسينتهز هذه الفرصة ويواصل الضغط عليها إلى أن يهزمها تماماً.

فقالت: «حسناً، على كل حال، فهذا ليس سبباً يجعلك تظن

أن بإمكانك أن... تعاملني بالقوة... ولكن، هذا كان المرحلة الثالثة التي استعملتها معي لتمهيد طريقك نحو غايتك، أليس كذلك؟ المرحلة الأولى هي مساعدتي في توليد النعجات، المرحلة الثانية هي أخذي معك في بالونك... وهذه معاملة تدير رأس طفلة بسيطة مثلي.»

ففتح فمه ليقاطعها، ولكنها تابعت تقول بسرعة: «والآن، هذه هي المرحلة الثالثة...»

التقطت نفساً طويلاً مرتجفاً: «وعلى كل حال، فقد عرفتك طوال حياتي، ونحن الاثنان نعلم كم أنت أناني.»

مضت لحظة شحنت هذه الكلمات الجو بينهما بالخطر. ولكنه ما لبث أن لوى شفتيه بازدراء: «ظني بي ما تشائين. فقد ضيعت من الوقت عليك هذا المساء أكثر من الكفاية. فاخرجي بنفسك من هنا... فأنا ذاهب لاستحم.»

واختطف المنشفة ثم ادار لها ظهره مبتعداً وانصفق الباب في نهاية الغرفة خلفه. وبينما وقفت تامسن جامدة في مكانها، سمعت صوت تدفق الماء فتحركت بجهد ثم خرجت من الغرفة ببطء.

الفصل التاسع

كومت تامسن آخر كمية البسكوت التي صنعتها بنفسها، كومتها في الطبق وكذلك وضعت طبق الخبز المكور والشطائر والخبز المحمص مع الزبدة. كل شيء كان جاهزاً رغم أن الطلاب لن ينتهوا من لعبتهم الحربية قبل ساعتين على الأقل. فكان ثمة وقت أمامها يمكنها فيه أن تجلس قليلاً، ولكن هذا يعني أيضاً أن ثمة وقتاً أمامها للتفكير... وكان هذا شيئاً حاولت جاهدة أن تتجنبه أثناء اليومين الأخيرين.

ربما بإمكانها أن تنقل المنضدة الخشبية القديمة إلى حديقة الأزهار، فقد كان النهار أجمل من أن يضيعه ضيوفها بالجلوس بالداخل، هذا إلى أن هذا المكان لا يكاد يسعهم، وهم أربعون شخصاً، والذين يمثلون أكبر مجموعة جاءت إليها حتى الآن. كما أنهم كانوا راضين تماماً بدفع مبلغ الثمانين جنيهاً التي طلبتها منهم بشيء من التردد. كان هذا لا يعادل المستوى الذي يطلبه زاك، بطبيعة الحال... وهي تتصوره الآن لاوياً شفتيه بسخرية... ولكن لعبة الحرب هذه قد ابتدأت تصبح حقاً، بالنسبة إليها، البقعة المضيئة في المنظر الأسود.

ولكن ما أن فتحت باب المطبخ، حتى جمدت مكانها مذهولة. كان الفتية عائدين عبر الفناء، يجرون اقدامهم بأسى. وعندما أخذت تنظر إليهم أخذ سيمون، وهو طالب

سنة ثالثة هندسة، كما أنه المسؤول عن تنظيم هذه الرحلة، أخذ يقطع بحربة بندقيته مجموعة من نبات القراص وقد تملكه الغيظ.

ما لبثت تامسن أن هرعت إليهم تسألهم: «ما الذي حدث؟ هل... هل أصيب أحد منكم؟»

فأشار سيمون بإبهامه باتجاه طالب آخر: «اسألي ذلك الحشرة برايان يا ليتنا لم نحضره معنا.» ثم انهار جالساً على رصيف حجري كان يستعمل فيما مضى لخض اللبن وصنع الزبدة.

نظرت تامسن إلى برايان الذي كان يسير وحده ثم إلى وجوه الفتية الآخرين المكتئبة، ثم قالت تخاطبه: «إنني آسفة جداً إذا كان هناك ما أفسد عليكم نهاركم.»

«إنك سرعان ما ستصبحين أكثر أسفاً، يا تامسن.» وبان على وجهه الأسى. «إنني أعرف ان الالعاب الحربية هذه هي مهمة بالنسبة إليك، كما أن...»

وتلاشى صوته، فنظرت إليه تامسن طويلاً، ثم سارت نحو الفتى الآخر تسأله: «ماذا حدث، يا برايان؟»

«آه، يا تامسن. إن لديّ خبراً رائعاً لك.» وابتسم لها بحرارة من وراء نظارتيه وقد بدا غير منتبه إلى الزمجرات التي قابل بها الفتيان كلماته هذه: «هل تعلمين أن في غابتك يوجد مجموعة مزدهرة من أزهار «سبيرانتس استيفاليس؟»

«ماذا؟» وأخذت تحدق إليه دون أن تفهم: «ما هذا الذي تتحدث عنه.»

«سبيرانتس استيفاليس أي خصلات السيدة الصيفية.»

قال ذلك بصبر ذلك الذي يتعامل مع الحمقى: «اسمعي. تعالي معي وسأريكها إنها تنبت على طول ضفاف الجدول.»

«آه، أتعني تلك الزنابق البيضاء الصغيرة؟ طالما تساءلت عما عسى أن تكون خصلات السيدة الصيفية... يا له من اسم جميل...»

«طبعاً، كان علي أن أوقف اللعب، كما تعلمين.»

فقالت شاعرة باضطراب مبهم يزحف في كيانها: «توقف اللعب؟»

«آه، نعم. فنحن لا نستطيع المجازفة بتعريضها للأذى بأي شكل كان.»

«ولكنها ليست من نوع غير عادي... فهناك زنابق أجمل كثيراً في ذلك المرعى هناك. إنها أزهار جميلة بنفسجية اللون تقريباً...»

فقال برايان بتهكم: «أتعنين دكتيلوريزا بريتيرميا؟ آه، تلك الأزهار خصلات السيدة الصيفية هي مختلفة تماماً. ذلك أن الناس يظنون إنها انقرضت منذ سنوات ولكن ها هي ذي تنبت عندك... وربما هي آخر الموجود منها في انكلترا.»

فقالت باهتمام: «هذا رائع حقاً ولكنني ما زلت لا أفهم.»

«علينا طبعاً أن نزيل كل المعدات من مكان اللعبة ثم نبلغ لجنة صيانة الطبيعة ومن ثم نضع اليد عليها بصفتها مكان يحتوي على اهتمامات علمية خاصة وعليّ أن ابلغك بأنني قد وضعت ترتيباً تمهيدياً بالنسبة إلى غابة لسكومب لاتخاذ فعاليات فورية.»

قال سيمون وهو يراها تقف صامتة لا تدري ما تقول: «هذا يعني، يا تامسن، ان على العابك الحربية أن تتوقف حالياً.»

«ولكن... ولكن هذا مستحيل.»

وأخذت تنقل نظراتها بينهما، شاعرة بالدوار وببرودة مخيفة تسري في كيانها. توقف الالعاب الحربية؟ ولكن ذلك الدخل المنتظم على الاخص هو الذي كان يجعلها تحتمل النظر إلى كيس نقودها... وبدونه... وازدردت ريقها.

«لا أريد أن أجرحك، يا برايان ولكن أليس من الممكن أن تكون مخطئاً؟»

«آه، كلا.» هز رأسه وهو يخرج كتاباً صغيراً من جيبه: «لقد تأكدت من ذلك في هذا الكتاب وأؤكد لك أن ليس ثمة خطأ.»

«حسناً، في هذه الحالة، ادخلوا وكلوا شيئاً. وطبعاً، لا أريدكم ان تدفعوا شيئاً لهذا اليوم. كلا.» وعندما حاولوا الاحتجاج، قالت: «وبعد فقد دفعتم ايجار الحافلة دون فائدة.»

وعندما دخلت تصنع الشاي، كانت تفكر في أن هذه قد تكون لفتة حسنة تماماً منها، ولكنها عادة تكلف مالاً...

• • •

«خذ، يا جوس.»

وعندما أخذ الكلب الفطيرة من يدها برشاقة ووضعها أرضاً، تنهدت هي. لقد كان معظم الطلاب من الأسى، لأجلها وليس لأجل أنفسهم... بحيث لم يأكلوا كثيراً وهكذا بعد

رحيلهم، ملأت ثلاجتها بكل أنواع الفطائر والشطائر والجبن والخبز المكور.

وإذ كانت من التوتر والأسى بحيث لم تستطع البقاء في البيت صفرت لجوس، ثم سارت نحو المروج مغيرة اتجاهها كلما رأت مجموعة من المتنزهين في العطلة الاسبوعية هذه. ذهبت أولاً إلى الغابة حيث وقفت عدة دقائق تحدق في تلك الأزهار الصغيرة الشاحبة التافهة الشكل. لو أنها فقط احضرت معها المعول لاقتلاعها، ربما كان بإمكانها بعد ذلك أن تقنع ذلك التعس برايان بأنه كان يحلم...

لكنها لم تلبث أن ابعدت من ذهنها هذه الافكار عديمة الفائدة، ثم غادرت الغابة إلى حيث أخذت تجول في المروج إلى أن وصلت إلى حيث أدركت أن عقلها الباطن أحضرها إلى هنا... ألا وهو الوادي السري.

لم تكن حضرت إلى هذا المكان منذ سنوات ليس منذ رحل زاك للمرة الثانية.. كلا، بل قبل ذلك منذ اعتاد هو وسارا أن يذهبا وحدهما، بينما تحول هي حصانها نحو الجهة المضادة حتى لا تواجههما.

لكن رغم أن سارا ماتت، وتغيرت هي وزاك إلا أن لا شيء تغير هنا. سارت بمحاذاة النهر من البحيرة الصخرية حتى شجرة العليق والتي ما زالت تتدلى فوق حافة الشلال ثم انحدرت بمحاذاتها لكي تجلس تحت الصخرة التي كانت تحميها من مهب الريح، وهي ترتجف قليلاً تحت رذاذ المطر الذي ابتدأ يهطل بعد ذلك الصباح الجميل.

كانت أفكارها في البداية منحصرة في هدير الشلال

المتساقط في البحيرة العميقة هذه، ولكن شيئاً فشيئاً، أخذت افكارها تتشعب. كيف بإمكانها أن تعيش الآن بعد أن خسرت ما كانت تدره عليها لعبة الحرب تلك؟ ليس أمامها إلا استجداء الحقير زاك. إن خسارته للغابة طبعاً ستكون ضربة قوية لمشاريعه، ولكن معرفتها الجيدة به كانت تخبرها بأن ذلك لن يعيقه عن أخذ كل أملاكها. فهو بالغ العزيمة في تنفيذ ما يريد...

ولكن كلا. إنها لن تستسلم. فقد أعطته جوابها الآن، وكرامتها تأبى عليها تغيير رأيها. ومنذ أيام قليلة فقط، كانت تظن أنها لن تحتمل العيش في مزرعة ويدزتور هذه بينما هي تحب زاك. ولكنها من غير الممكن أن تبقى مغرمة برجل كهذا مدة طويلة... وهكذا...

أخذت أفكارها تدور وتدور كالنحلة الطنانة، إلى أن انتبهت إلى أن الكلب غير موجود بجانبها.

نهضت واقفة تناديه وهي ترفع ياقتها حول عنقها تصد بذلك رذاذ المطر: «جوس، جوس أين أنت؟» ثم أخذت تصفر له، وإذا بها تسمع نباحاً خافتاً من أسفل جدول المياه.

أسفل الشلال، كان الوادي يزداد عمقاً بشكل مفاجيء عند المضيق ومن ثم يستحيل الجدول الجميل الضحل إلى سيل جارف حيث يرغم على النفاذ من ذلك المضيق الصخري. وكان هذا مكاناً مخيفاً، مظلماً مشرفاً... لاتنكر منذ بداية وعيها، شيئاً أكثر خطورة منه. فقد كان دوماً يملأها رعباً والآن وهي تتعثر في سيرها عادت إليها مشاعر الخوف الطفولي تلك.

عند أضيق الأماكن، حيث كان اتساع النهر لا يتعدى

الخمسة اقدام، كان الجانب الآخر له مختفياً تقريباً تحت جدار صخري صلد. وكان هناك افريز ضيق فقط أكثر انخفاضا من الضفة حيث كانت هي تقف... ما يجعل القفز سهل من ناحيتها، ولكنها قفزة من الأعلى فوق دوامة من المياه الخضراء يبلغ عمقها عشرة امتار. وكان الناس يسمون هذا المكان (خطورة الرجل الميت) لسبب وجيه.. ورأت تامسن الآن أن جوس كان في الناحية الأخرى المنخفضة تلك وهو يركض رواحاً ومجيئاً على ذلك الإفريز الضيق.

وعندما رآها، وقف وكأنه يريد أن يقفز. وسمعت هي نفسها تصرخ: «كلا، يا جوس، انتظر.» كان صوتها عالياً حاداً فوق المياه الهادرة، ثم وقبل أن تسمح للخوف بأن يشلها عن الحركة تماماً، قفزت إليه.

شعرت بالألم ويدها اليسرى تحتك بالصخرة، ولكنها مع ذلك جثمت بجانب جوس، وأخذت تجره بعيداً عن رشاش الماء. أخذت عيناها تقيسان الهوة... كان اتساعها أقل من اتساع شرفة بيتها أمام الباب، ولكن مع ذلك...

قالت تطمئن الكلب ونفسها في ذات الوقت: «لا بأس، لا بد أن يأتي شخص ما.» ولكن هذه البقعة كانت مهجورة نائية في الأوقات الحسنة فكيف بها والأمطار تهطل؟ ماذا لو لم يحضر أحد هذه الليلة؟ ماذا لو لم يحضر أحد قبل الغد؟ ماذا لو لم يحضر أحد قبل فوات الأوان؟ يجب أن لا أدع الرعب يتملكني... همست بذلك لنفسها وهي تبتلع غصة شعرت بها تستقر في صدرها مهددة بأن تستحيل إلى نوبة هستيرية من الرعب.

احتضنت كلبها تلتمس بعض الدفء من جسمه، محاولة أن لا تنظر إلى الماء الجاري تحتها واثقة من أن استمرار المطر، سيرفع من منسوب المياه دقيقة بعد أخرى نحو حافة الصخرة. ولكي تصرف ذهنها عن التفكير في هذا المد الزاحف، نظرت إلى ساعتها. إنها السابعة... سرعان ما سيرخي الظلام سدوله دون أن يأتي أحد. واغرورقت عيناها بدموع حارة.

قالت بصوت مرتفع: «لا بد أن يأتي أحد إلينا.» وإلى ذلك الحين، ستمضي الوقت تحسب مروره ستون ثانية تؤلف دقيقة، وستون دقيقة تؤلف ساعة... واستطاعت أن تركز أفكارها على ساعتها مرة أخرى. كادت تبكي خيبة وعجزاً وهي ترى أن الساعة هي الآن السابعة وعشر دقائق.

كانت أصابع احدى قدميها اكثر برودة من الأخرى وعندما حركتها وجدتها مبتلة. رفعت رأسها من حيث كانت تريحه على الصخرة، وإذا بها ترى أن المد الزاحف، وقد بدا على اطرافه الزبد الآن، قد انتشر على حافة الصخرة ووصلت إلى طرف حذائها ذاك. حدقت إليه لحظة بعينين متبلدتين ثم سحبت قدميها وهي ترتجف ذعراً.

عند حركتها هذه احتكت يدها بجيب سترتها الواسعة فشعرت بشيء صلب اخرجته فإذا به آخر فطيرة من تلك التي كانت صنعتها لأولئك الفتية. بدا وكأنه مضي على صنعها مائة سنة وعندما أخذ جوس يتشممها، اعطته نصفها وأخذت تأكل النصف الآخر وعندما وجدتها بمذاق الرماد في فمها، أعطته بقية حصتها. أكلها هو، ثم أخذ يئن ويتململ بقلق.

قالت له بصوت صبياني مرتفع: «لابأس، يا فتى، فنحن سنذهب إلى البيت قريباً.»

كان لخرير الماء فعلاً منوماً على ذهنها ما جعلها دائخة متشوقة إلى النوم. ولكن كان عليها أن تبقى مستيقظة. وأخذت تعد الحصوات التي كانت عند قدميها... واحد، اثنان... ثلاثة... أربعة... وجرفت دفعة ماء أبعد الحصوات، فدارت ودارت في الدوامة ثم بعد ذلك رأتها، وقد تملكها الذعر، تغوص إلى أعماق النهر.

أخذت تعد أشجار العليق على الضفة المقابلة، وذلك من خلال المطر المنهمر. واحدة... اثنتان...

«تامي...»

«... ثلاثة... أربعة...»

«تامي، أين أنت؟»

قطبت جبينها وهزت رأسها بخفة وكأن هذا الصوت الملحاح قد جعلها تخطىء في العد. ولكن... آه، هل هذا ممكن؟

«زاك!»

زحفت ثم نهضت واقفة، ولكن إذ كادت تفقد توازنها، عادت فهبطت على الأرض جالسة لا بد أنها تتخيل ذلك. وأغمضت عينيها بقوة ثم عادت ففتحتهما وإذا بها ترى من خلال المطر والغسق، شخصاً آتياً في الطريق على حصان أسود.

وعندما رآها، شد لجام الحصان بعنف، ثم تأرجح هابطاً من على السرج وثبت اللجام في غصن شجرة ثم جاء يسير على الضفة.

«زاك.» وخرج هذا الصوت من فمها مع شهقة صغيرة.

«ابقي حيث أنت.» جاءها صوته من خلال هدير المياه ونباح جوس المبتهج. وعندما تحركت محاولة أن تعود إلى الوقوف، عاد يصيح بها: «كلا، ابقي حيث أنت.»

ثم نزل إلى آخر الضفة، قبالتها. وكان يعرج كانت قد نسيت عرجه. فهو عليه أن لا يقفز... يجب عليه أن لا يقوم بذلك على الاطلاق وإلا فسيأخذه النهر... فلماذا حياتها بعده؟

حاولت أن تصيح قائلة: «كلا، إياك.» ولكن لسانها التصق بسقف حلقها، وقبل أن تحاول الصياح مرة أخرى، كان قد قفز من فوق الهوة العميقة. وعندما استقر على الأرض بجانبها بالضبط، رأته يجفل من الألم وفي اللحظة التالية كان يجلس بجانبها يمسكها من كتفيها.

«آه، يا تامي، هل أنت بخير.» ولكنها ما زالت لا تسمعه جيداً بسبب خرير الشلال.

فابتدأت تقول: «أنا...» ولكن الصدمة التي تملكتها وهي تراه بجانبها، يمسك بها، كانت أكثر مما تستطيع احتماله فرفعت يدها إلى وجهها وانفجرت باكية ليس بهدوء وإنما بصوت عال صاخب كطفلة صغيرة.

«آه، يا تامي... لا تبكي.»

أخذ يهدهدها بصوته وكأنها حقاً طفلة إلى أن توقفت دموعها أخيراً، فسألها: «أحسن الآن؟» وعندما اومأت بالإيجاب، نهض واقفاً جاراً إياها معه. ورأته ينظر إلى أسفل عابساً، وعندما تابعت نظراته، إذا بها ترى المد.

المزيد قد وصل الآن إلى فردة حذاء الركوب الذي يرتديه. ولكنه ضحك لها يطمئنها: «لا أظن المكان صحياً تماماً هنا. فدعينا نذهب إذن، أليس كذلك؟»

لم تكن تريد أن تقفز. كل خلية في كيانها كان يصرخ (كلا) ولكنها لم تستطع أن تدع زاك يرى أية جبانة تعسة هي. وهكذا كبحت ذعرها ثم أرغمت نفسها على مواجهة الماء.

«كلا، من هذا الطريق.»

صاح بذلك في أذنها، ثم أمسك بيدها يجرها على طول الضفة إلى أضيق نقطة فيها، ثم التفت إليها. كان المطر ينساب على وجهه، ملصقاً شعره الأسود على رأسه كالخوذة.

ثم أمرها قائلاً: «والآن اصعدي من هنا.» ولكنها عندما تبعت اتجاه اصبعه ورأت شقاً عمودياً على الصخرة التي تعلوهما تراجعت بهلع: «كلا... كلا، لا استطيع.»

لكنه أمسك بها جيداً يهزها من كتفيها: «بل عليك أن تقومي بذلك وسأكون خلفك فيما لو انزلقت.» إذن فسيقعان هما الاثنين، في النهر.

«ولكن جوس... لا أريد ان اتركه هنا.»

«بل ستفعلين ذلك، تباً لك.» كان الغضب يتملكه، وغضب زاك كان فوق احتمالها. وكان هو يتابع قائلاً: «على كل حال، أينما تذهبين فهو سيتبعك. والآن... تحركي.» ثم دفعها بخشونة نحو شق الصخرة.

لن تنسى تامسن قط في حياتها هذا التسلق. كان لا يكاد يبلغ علوه الأربعين قدم، ولكنه كان عمودياً والشق من

الضيق بحيث استطاعت أن تحشر نفسها فيه ببالغ الصعوبة محاولة ان تتمسك باصابعها بمجموعة من العشب الغليظ كان نامياً من الصخرة. عدة مرات كانت تتلمس بأصابع قدميها، مكاناً ثابتاً وفي كل مرة وبشكل ما، كانت يدا زاك تجد ثغرة في الصخرة يتمسكان بها.

حاولت مرة أن تلتفت ولكنه صاح بها: «كلا، لا تنظري حولك!»

وهكذا كانت ترفع نفسها لتعبر فوق العوائق النهائية لتسقط اخيراً إلى الأمام على وجهها على الجذور المتشابكة لشجيرات قصيرة متكاثفة.

استلقت على الاعشاب المبتلة وأنفاسها تتسارع في أذنيها وما لبثت أن شعرت بزاك ينهار بجانبها ثم جوس يلعق يديها.

وشيئاً فشيئاً، انتظمت انفاسهما، وتحول زاك نحوها يواجهها. كانت اعينهما متقاربة جداً، ولكن بعد نظرة واحدة لم يعد بمقدور تامسن مواجهة نظراته.

سألها برقة وهو يمسح آخر دمعة عن وجنتها باصبعه: «هل أنت بخير الآن؟»

لم يكن لديها القوة لتومىء بالايجاب، فهمهمت تقول: «شكراً، يا زاك... لانقاذك حياتي. لو كنت بقيت هناك طوال الليل...» وارتجف صوتها، واقشعر جسمها وهي تفكر في ما كان سيحدث لها.

فقال بصوت خشن: «آه، يا تامي لا تبدي بهذا الشكل.» ثم استقام جالساً.

«أخبريني كيف اوقعت نفسك في ذلك المأزق، على كل

حال؟ لقد كنت نهيتك مئات المرات عن الذهاب إلى ذلك المكان.»

أخذت تفكر في أن ذلك كان منذ سنوات كثيرة، حين كان يلقي بأوامره إليها كأخ أكبر...

لكنها أجابته قائلة: «حسناً، لقد عبر جوس الضفة، ثم...»

«كان عليّ أن ادرك أن الأمر يتعلق به وطبعاً، كان عليك أن تلحقي به.» وهز رأسه ساخطاً: «يا لهذا التصرف الغبي الأحمق.»

«لم يكن بوسعي أن اتركه هناك، أليس كذلك؟» لقد كادت اعصابها، والمتوترة أصلاً، أن تتحطم تحت وطئة هذا الهجوم. «وعلى كل حال، لا بد أنك كنت هناك من قبل حتى رأيت طريق الخروج ذاك.»

«نعم، حسناً، ذلك شيء مختلف.»

«لا أرى سبباً يجعله مختلفاً... وأظنك ستقول عني الآن أن الوقت قد حان لكي أكبر، وأنني ما زلت طفلة غبية.»

«آه، كلا يا تامي، لن اقول لك ذلك أبداً بعد الآن.»

كان في صوته نبرة حزن... أو لعله ندم، ولكنه عاد فقال بحيوية: «هيا بنا، لقد حان الوقت للتحرك... ولا بد أنك مبتلة تماماً.»

ولكنها، عندما نهض واقفاً مستقيم الجسم، ومدّ يده إليها يساعدها على النهوض، نهضت واقفة دون مساعدة منه.

قال: «إننا بحاجة إلى العودة إلى حيث يتسع النهر حيث يمكننا عبروه على الحجارة الموضوعة للسير عليها وذلك إلى حيث نحضر ساتان والذي هو حصاني.»

وعندما عبرا النهر انتظرت تامسن مع جوس تحت شجرة بينما ذهب زاك ليحضر الحصان. أخذت تنظر إليه عائداً نحوها متمهلاً ممتطياً حصانه، عندما تملكها فجأة، ودون سابق انذار، شوق جارف إليه، وإلى حبه...

وايقظها صوته، فجأة من حلمها الحلو المر قائلاً بلهجة لاذعة: «أتريدين أن تبقي هنا طوال الليل؟»

مد يده إليها، وعندما اصعدها إلى السرج أمامه، أخذ الحصان الكبير الحجم يختال سائراً بشكل جانبي، ثم ما لبث أن استقام في سيره. وصفر زاك لجوس ثم جذب اللجام وهو يدير رأس ساتان باتجاه البيت.

قالت له: «يا لها... يا لها من مصادفة، أعني حضورك إلى هذا المكان.»

فأجاب: «ليس ثمة مصادفة فقد، كنت عدت لتوي من قسم التدريب مع رجالي، عندما اتصل بي ماتيو هاتفياً. كان قلقاً للغاية... لقد كان يعرف أنك في مكان ما من المروج، وسألني عما إذا كنت رأيتك.»

«ولكن عثورك علي ما زال يدخل في باب الحظ.»

«ليس تماماً. فقد داخلني شعور بأنك ذهبت إلى (الوادي السري) وهكذا سرت بمحاذاة النهر إلى أن وجدتك.»

مد ذراعه يحث الحصان، فاحتكت بها وعند ذلك أحست بتشنج في جسمها، وتقدمت قليلاً إلى الامام. وإذ أحس هو منها ذلك قال بلهجة لاذعة: «لا تقلقي، فأنا لن أطلب منك تعويضاً.»

فسألته بعجب وهي تنظر أمامها: «ماذا؟ تطلب تعويضاً؟»

«نعم، حياتك، وحياة جوس طبعاً، بديلاً للمزرعة وهكذا، لا حاجة بك إلى الجلوس هناك متوترة تترقبين.»

حسناً، إنه على الأقل، أساء فهم سبب ردة فعلها تلك.

وإذ شعرت بالدوار، اغمضت عينيها تلتمس شيئاً من الراحة، وسرعان ما استغرقت في النوم.

www.elromance.com

الفصل العاشر

«هيا إنزلي.»

فانتبهت تامسن، وإذا بها تجد ان زاك كان ينزلها من على صهوة الحصان، كان الظلام قد أرخى سدوله باستثناء ضوء كان قادماً من...

واتسعت عيناها: «لماذا احضرتني إلى هنا؟»

فقال بخشونة: «اظنك تفضلين العودة إلى بيت قروي مظلم بارد موحش، أليس كذلك؟ حسناً، انني آسف لأن اخبرك بأنك ما عانيته لم يترك تأثيراً سيئاً، على صحتك وان كان السبب الذي يجعلني أزعج نفسي لأجلك هو شيء لا أفهمه.» قال ذلك وهو يراها تقاومه بعناد بالرغم من تعبها البالغ.

لكنه في النهاية، حملها بالرغم عنها وصعد بها إلى داخل المنزل الدافىء حيث وضعها على نفس المقعد في الردهة والذي كانت جلست عليه مساء أمس قبل ان تعثر عليه في الاصطبل.

«ماذا تامسن؟ ما الذي جرى؟»

قالت مديرة المنزل هذا وهي تخرج من المطبخ ثم تحدق فيها باستغراب.

فقال زاك وهو يبتسم للمرأة مطمئناً: «انها بخير، يا سيدة ميدوز.» ثم اضاف بحزم: «بإمكاني في ان اهتم بها بنفسي، شكراً، إنما يمكنك ان تأخذي الكلب جوس إلى المطبخ وتضعيه بجانب المدفأة، ثم تحضري شراباً دافئاً... وشيئاً يؤكل.»

بعد ان ألقت المرأة نظرة متشككة على الفتاة، والتي كانت ما تزال محنية الكتفين والرأس، خرجت وهي تجر جوس معها، بينما عاد زاك يلتفت إلى تامسن، قائلاً: «والآن فلنلق نظرة عليك.» كان ما يزال يخاطبها بتلك اللهجة القاطعة العفوية: «حمام ساخن أولاً، كما أرى، ثم ثياب جافة، وبعد ذلك الطعام.»

نظرت إليه تامسن بامتعاض وهي تهم بالاحتجاج بقوة بأنها لا تريد شيئاً من هذا ولكنها وبشكل ما وجدت نفسها تصعد السلم خلفه ثم تسير في ممر طويل، ثم فتح باب أخذت تطرف بعينيها وهي تنظر منه مذهولة.

انها تذكر حتماً ان حمام هذا البيت كان دوماً حماماً واسعاً معتماً يحتوي على حوض قديم الطراز وتتشابك في سقفه انابيب المياه والتي كانت تحدث قرقعة مفزعة كلما فتح احد صنابير المياه، اما هذا الحمام فقد كان مختلفاً بشكل كلي، صحيح ان الحوض القديم المصنوع من خشب الماهوغني كان ما يزال موجوداً، ولكنه كان قد طلي بلون عسلي عصري يتلاءم مع الصنابير المطلية بماء الذهب، وكابينة الدوش المستحدثة، وكذلك مجموعة قياس درجات الحرارة قائمة على لوحة رخامية بنية اللون. هذا بينما زاك لم يعد إلا منذ اسابيع قليلة، ولكن حيويته وطاقته.. كانتا مخيفتين تقريباً.

وقفت تنظر بشيء من الخجل، وهو يملأ الحوض بالماء الساخن، ويخرج لها مناشف وقطع صابون جديدة، ومكعبات من خشب الصندل وضعها في الماء لتعطيره، يبدو انه يستعمله بنفسه وذلك من رائحته التي كانت تشمها منه على الدوام.

وعندما انتهى أدار عينيه في أنحاء الحمام راضياً وهو يقول: «هذا حسن، اجلسي في الحمام قدر ما تشائين، وسأتصل انا هاتفياً بماتيو واخبره بأنني عثرت على الولد التائه.»

رقت أساريره وهو ينظر اليها ولكن للحظة واحدة تلاشت بعدها هذه الرقة: «وسأدعك جسم الحصان ثم استحم انا أيضاً.» وعندما نظرت إليه بحدة اضاف يقول: «آه، لا تقلقي، لن استحم هنا، فإن لي حمامي الخاص.»

وعندما بقيت على ترددها، واضعة يدها على سحاب سترتها مد يده يزيح يدها تلك، وعندما رآها تجفل، نظر فإذا خيط جاف من الدم كان قد سال من جرح عميق في راحتها، بينما امتلأ ما حوله بالخدوش. امعن النظر بذهول إلى هذا وقد توترت شفتاه، ولكن كل ما قاله بصوته الهادىء البارد، هو: «يوجد في الجرح بعض فتات الصخر، سأهتم بها فيما بعد.» ثم استدار وخرج من الحمام.

بينما غاصت تامسن في الماء الساخن وقد شملتها البهجة، اذا بطرق على الباب، وتذكرت انها لم تقفل الباب بالمفتاح فصاحت: «لا تدخل.»

لكن الباب فتح وسمعت صوت زاك يقول ويده تمتد تلقي بكومة من الثياب على الأرض: «خذي البسي هذه.» ثم انسحب معيداً اغلاق الباب، بينما عادت تامسن إلى الاستلقاء في الماء الساخن المعطر.

لكن هذه المقاطعة منه اعادتها من مشاعرها الوردية إلى الواقع الجاف، ها هي ذي في منزل الأعداء... وزاك هو عدوها... رغم كل ما فعله نحوها، ان عليها ان تقطع الاتصال به... يجب ان لا تسمح بذلك بعد الآن، إذ من يدري ما

ستتطور إليه مشاعرها إذا ما استمر هو في إبداء مثل هذه المشاعر نحوها؟

كانت المياه قد اخذت تبرد، فخرجت من الحوض وأخذت تجفف جسمها بالمنشفة، وعندما رفعت كومة الثياب التي كان زاك القاها اليها. رأت انها عبارة عن معطف حمام كحلي اللون، وبيجاما بلون القشدة بالغة الاتساع بالنسبة إليها. انها له طبعاً، واخذت تحدق اليها باستياء.

حسب معرفتها، يأتي إلى بيته نساء كثيرات، اما كان بإمكانه ان يستعير لها منهن؟ انها لن تلبس هذه، لكنها عندما عادت إلى ملابسها هي، رأتها مبتلة وملوثة بالتراب، وهكذا اذعنت للواقع كارهة.

كانت مديرة المنزل في انتظارها في الردهة: «آه، هذا حسن، يا تامسن، فقد احضرت إليّ ثيابك الوسخة.» ومدت يديها: «اعطينيها، فقد قال لي السيد تريشارد ان اغسلها واكويها لك.»

«آه، لا حاجة بك لذلك، شكراً.» وتشبثت تامسن بالثياب بحزم.

«حسناً، اذا لم تشائي ذلك... ولكنه قال...»

فقاطعتها تامسن باسمة وهي تسير معها إلى غرفة الجلوس: «لا بأس، سأجففها بجانب المدفأة.»

كان زاك قد غير ملابسه إلى كنزة ذات لون اصفر باهت، وبنطلون اسود، وكان واقفاً في آخر الغرفة مستنداً إلى رف المدفأة وهو يحدق باكتئاب إلى لهب النيران، كانت افكاره تبدو بعيدة نائية ما جعلها تنكمش على نفسها لا تجرؤ على التطفل على مجرى تلك الأفكار، ولكنه كان قد سبق والتفت بعد ان سمعهما داخلتين.

عندما تقدم نحوهما، رأى الثياب بين ذراعي تامسن فقال مقطباً جبينه: «اظنني قلت لك ان هذه الملابس بحاجة إلى غسيل، يا سيدة ميدوز.»

فقالت تامسن بسرعة: «كلا، لا بأس في ذلك يا زاك، ان بإمكاني ان اجففها هنا، فأنا سأذهب إلى البيت بعد فترة قصيرة، وهناك...»

«هات الثياب.» وقبل ان تتراجع معارضة، كان قد أخذ الثياب بهدوء من بين اصابعها المتشبثة بها، ثم ناولها إلى مديرة المنزل التي كانت واقفة خلفها، وهو يقول لها: «أرجوك ان تتدبري أمرها الآن.»

«حسناً جداً يا سيد ترنشارد.»

فتحت تامسن فمها لتجادله، ولكنها ما لبثت ان أدركت ان المرأة وراء عملها الرسمي، كانت مرهفة أذنيها لكي تلتقط أي معنى خاص لما بينها وبين زاك، عند ذلك منحتها ابتسامة مشرقة وهي تقول: «شكراً يا سيدة ميدوز هذا لطف بالغ منك.»

«وهل جناح الضيوف جاهز لأجل الآنسة ويستماكوت؟»

«نعم، يا سيدي، فقد جهزتها ماري.»

«حسناً، يمكنك احضار العشاء حالما تعدينه.» وبعد لحظة كانا وحدهما، فتلاشت ابتسامة تامسن وقالت بحزم: «انني لن ابقى هنا، يا زاك، انني سآكل شيئاً ثم اذهب بعد ذلك إلى بيتي.»

«في هذه الملابس؟» ونظر إلى البيجاما ومعطف الحمام اللذين ترتديهما وقد رفعت ساقي البيجاما إلى كاحليها، بينما المعطف كان من الاتساع بحيث انزلق عن كتفيها، وقال: «انني آسف، ولكنني لن اخرج مرة أخرى في ليلة

كهذه، فاسكتي من فضلك، يا تامي، واقتربي من النار لتدفئي نفسك.»

فابتدأت تقول: «انا...» ولكنه أمسك بيدها يجرها إلى الأريكة ثم دفعها عليها برفق. وعندما التقط قضيب النار النحاسي واخذ يحرك الحطب في المدفأة، اخذت تحدق اليه وقد بدا الاضطراب في عينيها، كل حركة منه كانت تثير مشاعرها نحوه... إلى متى بإمكانها ان تلجم هذه المشاعر؟

حرك زاك النار لآخر مرة، ما اطلق شلالاً من الشرر نحو المدخنة، ثم التفت اليها، ولا بد انه لمح شيئاً في وجهها رغم انها تعمدت إبعاد كل المشاعر عن ملامحها، لأنه سألها قائلاً: «وماذا حدث الآن؟»

كانت لهجته جافة فظة، ربما لم يكن خالياً من القلق أو الإنزعاج، كما كان يبدو، ولكن هذه الفكرة بدلاً من ان تطمئنها، زادت من توترها.

«أنا... أنا...» وحولت عينيها عن تلك العينين النفاذتين، ثم قالت: «إن يدي تؤلمني.» ولم تكن كاذبة، لأن يدها كانت ما تزال تنبض بالألم حتى بعد الحمام، واضافت وهي تراه يتقدم نحوها ويمسك بيدها يتفحصها: «ولكنها ستكون على ما يرام.»

نظرت اليه... إلى شعره الأسود الذي كان ما يزال رطباً عند السالفين من بعد الاستحمام... وانقبض قلبها ألماً ومرارة ما جعل عينيها تغرورقان بالدموع. وإذ رفع بصره اليها قال: «آسف، هل آلمتك؟»

«كلا، ليس كثيراً.» وعلى كل حال، من الأفضل ان يظن ذلك.

«حسناً، اظن الحمام نظف الجرح من كل ما كان علق به من تراب وغيره، سأحضر مرهماً.» ولم تحاول هذه المرة الاحتجاج.

عندما خرج اتكأت إلى الخلف على وسائد الأريكة، ولكي تخفف من توتر اعصابها، اخذت تتأمل جمال الغرفة حولها، لقد رأت هنا، كما رأت في كل نواحي المنزل، الأعجوبة التي قام بها زاك في هذا التبديل، فقد زيّن الغرفة باللونين الأخضر والوردي من السجادة السميكة الوثيرة إلى الستائر التي تصل إلى الأرض، وأغطية المناضد وخزانة الأدراج الأثرية المصنوعة من خشب الماهوغاني.

«اظن كل هذا نال استحسانك؟»

فأجفلت وهي تسمع صوت زاك قادماً من خلفها: «آه، نعم، انه جميل جداً.»

«لقد عرفت بعض هذه القطع، بالطبع، تلك الخزانة هناك مثلاً كانت أمي تضع فيها الأواني المصنوعة من الخزف الصيني، هل تذكرين؟»

نظرت اليه بحدة، انها المرة الأولى التي تسمعه يتحدث فيها عن أمه منذ رحيلها، ولكن وجهه كان جامداً تماماً.

وتهالك على الأريكة بجانبها، وفتح انبوب المرهم ثم أمسك بيدها بقوة وبدأ يضع عليها الدواء.

وكان اثناء ذلك يتحدث قائلاً: «ان ذوقي في الأثاث، في الحقيقة يميل إلى الطراز الاسكندنيافي.»

فكرت في ان هذا صحيح، فخشب الساج والجلد الأسود، والخطوط الواضحة المليئة بالحيوية تتلاءم تماماً مع شخصيته. أخذت تنظر إليه وهو يقطع بعض الشاش جاعلاً

منه شبه ضمادة وضعها في راحتيها، ليثبتها اخيراً برباط كامل. يا لمهارته، فهو يقوم بكل شيء بنفس الكفاءة الجميلة والخفة في الحركة، لم تتصور قط أن بإمكانه ان يكون ثقيل الحركة إلا بالنسبة إلى عرجه طبعاً، ولا بد ان بإمكان التمارين ان تريحه مع مرور الوقت، وما عدا ذلك، فقد كان قوياً رياضياً في كل جزء من جسمه، سواء بالنسبة إلى سيطرته على حصانه، أم إلى الصبر في توليد النعجة.

قرع الباب ودخلت السيدة ميدوز تحمل صينية مثقلة بالحساء واللحوحات الباردة والسلطة والخبز والزبدة.

وضعتها على المنضدة الصغيرة بجانبهما، ثم ابتسمت لتامسن برقة: «اتشعرين بتحسن الآن يا عزيزتي؟ ثم لا تقلقي على جوس.» فأجفلت تامسن شاعرة بالذنب وهي تدرك بفزع انها في الواقع، لم تفكر في كلبها مرة واحدة وذلك منذ وصولها إلى هنا.

وكانت المرأة تتابع قائلة: «لقد اطعمته ماري وهو نائم الآن على بساط بجانب نار المطبخ.»

«شكراً، يا سيدة ميدوز، انك تدللينا، نحن الاثنين.»

«آه، ثم يا سيد ترنشارد لقد كدت أنسى في مشاغلي الكثيرة... لقد اتصلت السيدة دايفيز منذ فترة وكانت واقعة في مأزق... ثمة شيء يتعلق بالاحتفال غداً.»

تنهد زاك بشكل مسرحي مؤثر: «آه، لقد ابتدأت اندم على كل شيء لا بأس، سأتصل بها بسرعة الآن.»

تبع مديرة المنزل إلى خارج الغرفة، وبعد ذلك بلحظات سمعت تامسن صوته في الردهة. إعتذار... ضحك... احتجاج... تردد، وأخيراً موافقة ولكنها بالإكراه، ثم حديث

طويل من ناحية واحدة وكله تقريباً من ناحية السيدة دايفيز، كان صوت زاك مهذباً رقيقاً، ولكنها استطاعت ان تميز نبرة الضيق فيه.

عاد أخيراً عابس الوجه، ثم تهالك على كرسي كبير قبالتها ثم نفث نفساً طويلاً، ويبدو انه كان يمرر اصابعه خلال شعره غيظاً، لأن شعره بدأ أشعث تماماً.

«آسف لتأخري، كان عليك ان تبدإي بتناولا العشاء.»

ثم مد يده يجر المنضدة ليضعها بينهما، ثم ناولها صحفة الحساء، فتناولتها منه وهي تسأله بفضول: «هل هناك مشاكل؟»

بدا عليه وكأنه يهم بقول شيء، ولكنه عاد فغير رأيه: «كلا، في الحقيقة، كانت تسألني فقط تأدية خدمة وهذا كل شيء.»

فقالت بإصرار: «ولماذا هذه الحفلة إذن؟»

«لماذا هذه الحفلة؟ وأين كنت طوال الاسابيع الماضية، إذن؟ ألم تري الاعلانات في كل مكان؟»

أجابت بشيء من العنف: «كنت مشغولة جداً.»

فرفع يده يهدئها: «لا بأس، لا بأس، على كل حال فهو عيد مايو طبعاً... اننا سنحتفل به هنا في بيتي، بدلاً من قاعة القرية.»

«ماذا؟» وسال الحساء من ملعقتها.

«ولماذا لا؟ وبعد فقد كانت العادة دوماً ان يقام الاحتفال بهذا العيد هنا، أليس كذلك؟»

قالت ببطء وهي تنتقي كلماتها بعناية: «حسناً، نعم، ولكن ذلك لم يحدث منذ سنوات.»

«هذا صحيح، فأنا اعرف ان أبي لم يكن يحب ان يزعج

نفسه بذلك، ولكن حسناً، دعينا نقل فقط انه عندما طلبت السيدة دايفيز ذلك مني، لم استطع مقاومة تأدية دور سيد الأملاك. ولو مرة واحدة.» وابتسم لها برقة: «على كل حال ستكون الحفلة في قاعة الحفلات القديمة، إذا كان الفناء حيث تقام عادة مبتلاً بالماء، ولكنه سيكون جافاً، كما اكدت لي السيدة دايفيز.»

وسكت، ثم سألها: «هل أنت قادمة، كما أرجو؟»

«حسناً، لست واثقة.» لم تكن حضرت حفلة، في الواقع منذ رحيل سارة، وهي طبعاً لن تحضر هذه السنة، إذا كانت الحفلة ستقام هنا. فقال باسماً: «بل تعالي، حيث انني أؤدي دوري الجديد بصفتي لورد أف لسكومب، وقد أفتتح الحفلة معك.»

فهزت تامسن رأسها بحزم: «كلا... لا يمكنك هذا أبداً، فأنت تعلم ان الملك المختار في التمثيلية التي تقوم عليها الحفلة، دوماً يختار فتاة لهذا الأمر.»

فقال متهكماً: «آه، نعم هذا صحيح، فقد نسيت وعلينا ان لا نتدخل في أي من هذه الممارسات السخيفة، أليس كذلك؟»

فقالت بذعر: «سخيفة؟ عليك ان لا تقول كلاماً كهذا، يا زاك.»

فقال بسخرية واضحة: «آه، دعك من هذا، يا تامي، لا اظنك تصدقين حقاً مثل تلك الأقوال التافهة عن ان الاحتفال بعيد أيار يجلب الحظ إلى لسكومب لمدة عام؟»

لكن تامسن هزت رأسها بعناد: «لا أدري، يا زاك، ماذا بالنسبة إلى ما حدث منذ سنوات عندما طلب كبير القرية من القرويين أن يحتفلوا في مروج القرية بدلاً من الاحتفال به

هناك عند رجل لسكومب كالعادة، فإذا بكل المواشي تموت و...»

فقهقه زاك ضاحكاً: «يا لك من قروية صغيرة تؤمن بالخرافات.» ولكن عندما زمت شفتيها بعناد، قال: «حسناً، صدقيها، إذا شئت، والآن اتريدين مزيداً من اللحم؟»

أومأت برأسها رافضة: «كلا؟ سأطلب القهوة إذن.»

مد يده إلى جرس موضوع على رف المدفأة، وبعد ذلك بلحظات دخلت مديرة المنزل بصينية القهوة وعليها طبق مليء بقطع حلوى بالشيكولاته.

اخذ زاك القهوة منها: «شكراً لك، سأتدبر أمرها بنفسي، ولا تزعجي نفسك بالانتظار لكي تأخذي الأطباق إلى المطبخ لغسلها، فالوقت متأخر.»

قالت المرأة وهي ترمق تامسن بنظرة جانبية طويلة: «ليس في ذلك أي إزعاج، يا سيد ترانشارد، انني سأنتظر إلى ان تنتهيا.»

فقال زاك بحزم: «كلا، لا حاجة لك بذلك.»

«حسناً جداً يا سيدي.» وبعد شيء من التردد، قالت: «تصبحين على خير، يا تامسن، تصبح على خير يا سيدي.» وعندما اغلقت الباب خلفها، شخر زاك ضاحكاً، فنظرت إليه تامسن بعجب، ثم سألته: «ما الأمر؟»

«ما الأمر؟»

«آه... انها السيدة ميدوز، ان ما في ذهنها واضح تماماً، وإذا كنت لم تفهمي ذلك، فقد كانت مقتنعة تماماً بأنها إذا تركتك هنا معي دون رقابة، فكأنها سلمتك إلى مصير هو أسوأ من الموت.»

«آه، فهمت.» حاولت ان تقول ذلك ببرودة، ولكنها شعرت بالدم يصعد إلى وجنتيها فمالت إلى خلف بسرعة تظلل بذلك احمرار وجهها في الضوء المنبعث من المصابيح الجدارية.

فقال زاك وعلى فمه ابتسامة عريضة: «ومن ناحية أخرى ربما ما أوحى إلي بذلك هو الحديث عن العيد هذا.»

«ماذا تعني؟»

«حسناً، المفروض ان هذه التمثيلية ما زالت من بقايا الاحتفالات القديمة بالخصوبة، أليس كذلك؟»

«التمثيلية؟ وما شأنها؟»

«حسناً، لا بد انهم في غابر الزمان، كانوا يحتفلون بشكل أوسع كثيراً من هذا الاحتفال المختصر الذي تقوم به القرية، والذي يفتتح الاحتفال هو الملك كما يسمونه، وذلك مع الفتاة المحظوظة التي يختارها كعروس تلك السنة، حسناً أعني...»

وبسط يديه بإشارة معبرة فقضمت بسرعة لقمة من الخبز المغطى بالزبدة، دون ان تقابل نظراته. أخذ زاك يرشف قهوته مفكراً، وجلس الاثنان صامتين عدة دقائق، ولكن في النهاية وتحت ستار رفع فنجانها إلى شفتيها، نظرت اليه خلسة.

كان مستنداً إلى الخلف وقد بسط ساقيه الطويلتين امامه، واخذ يحدق في السجادة بذهن غائب، كان نصف وجهه يتألق بوهج نيران المدفأة ما بدا معه صبيانياً تقريباً، اما النصف الآخر فقد كان في ظل داكن، ما أخفى ذلك التوتر في فكه وحول فمه، والذي كانت تامسن تعرفه جيداً، كان هذا الرجل والذي كانت تراه غريباً ومألوفاً في نفس الوقت، كان ينتمي إلى نفس القرية التي كانت تنتمي هي اليها، ولكنه هو قد ابتعد عنها...

وإذ اخذت تحدق اليه من تحت اهدابها، عاد إليها ذلك الألم العميق الذي أصبح جزءاً من كيانها كالتنفس تقريباً، فتقلص وجهها على الفور، وكأنما بسبب ألم جسدي، ولكن الفرق الوحيد هو ان هذا النوع من الآلام لم يخترعوا له دواءً يقضي عليه، بعد.

أدركت ان زاك كان يراقبها، وكان وجهه الآن محتجباً بإحدى ذراعيه التي كان ثناها تحت رأسه ما جعلها تخفق في رؤية التعبير الذي كان على وجهه، ولكن كان في جموده هذا ما أثار قلقها وارتباكها.

سألها فجأة: «اتريدين مزيداً من القهوة؟»

«كلا، شكراً.»

ولكنه بدلاً من ان يعود إلى كرسيه، تقدم جالساً بجانبها على الأريكة، كان وهج النيران قد احال لون عينيه إلى لون فضي شاحب غريب، تمتم يقول: «اتعلمين، انك هذه الليلة وشعرك منسدل بهذا الشكل، اصبحت...» ولاحت على شفتيه ابتسامة باهتة وهو يتابع: «تامي الصغيرة وقد كبرت.»

لم تجب وسادت بينهما لحظة صمت لخترقها بقوله بصوت أبح: «تامي؟» وعندما نظرت اليه رأت التعبير البادي على وجهه... كان مزيجاً من الإرتباك والعجب، وهو ما كانت لمحته في وجهه مساء أمس.

«نعم، يا زاك.»

ابتسمت له ومالت نحوه كما مال هو نحوها وقد ازداد تألق عينيه واضطرام وجهه... مد ذراعيه نحوها فنظرت إليه بلهفة وكادت تستجيب له... لولا... سارا!

اشتعل هذا الاسم في ذهنها، وبدون وعي، مدت يديها تدفعه عنها: «كلا... ابتعد يا زاك.»

فقال بصوت ممزق: «تامي... لا تكوني حمقاء انت تعلمين انك تريدينني كما أريدك.»

مد يديه اليها مرة أخرى يحاول اخذها بين ذراعيه، ولكنها ابتعدت عنه وهي ترتجف، حاشرة نفسها في زاوية الأريكة.

ساد السكون جو الغرفة واخيراً قال: «تامي؟»

«نعم؟»

«هل ثمة رجل معين في قلبك؟»

«كلا.»

جلس عابساً يتأمل في بقعة ما بين الكرسي والجدار المقابل وذلك مدة بدت لا نهائية، وأخيراً اخترق ذلك الصمت بقوله: «اتعلمين، يا تامي؟ اظن ان عليك ان تتزوجيني.»

الفصل الحادي عشر

انتفضت تامسن قائلة: «ماذا؟»

«قلت أظن أن عليك أن تتزوجينني.»

وعندما استدارت تحدق إليه، وقد اتسعت عيناها من شدة الدهشة، قال زاك بابتسامة باهتة: «حسناً، قولي شيئاً.»

«ولكن، لماذا؟»

فهز كتفيه بشيء من الضيق: «آه، لأن... لأن... هل أنت حقاً بحاجة إلى سبب؟»

«نعم، بالطبع.» وكان ذهولها قد بدأ يتبدد بسرعة إزاء واقعيته المجردة من العاطفة، ليحل مكانه شعور أقرب إلى الاستياء.

لوى شفتيه، قائلاً: «لابأس، إذن دعينا نقول فقط ان هذا أمر جيد لنا، نحن الاثنين.»

«ولكنك...» سكتت وهي تعض شفتها كانت تريد أن تقول له: (ولكنك لا تحبني) ولكنها لا تريد منه تأكيداً كاذباً بأنه يحبها، بينما هي تعلم جيداً حقيقة مشاعره نحوها.

وعادت تقول: «كلا، لا يمكنني أن أتزوجك طبعاً.»

ولكن، أليس هذا ما كانت تحلم به منذ عرفت الأحلام.

«آه، دعي عنك هذا، يا تامي... فأنت بإمكانك طبعاً أن تتزوجيني.» نظر إليها برقة وقال باسماً: «إنك لن تكوني تعيسة معي، أليس كذلك؟»

بل ستكون تعيسة حقاً... فهناك العذاب، وفي كل يوم من

أيام حياتها، فان تحبه، مدركة انه لا يحبها، وأنه تزوجها فقط لأجل... وأدركت فجأة ان هذا هو السبب... فالزواج هو الوسيلة الوحيدة لديه لكي يحصل على ما يريد. ولكن ألا يستحق الزواج من زاك كل ذلك الألم؟

قال لها وهو ينظر إليها بوجه خال من التعبير: «حسناً؟» ولكنها من وراء كلمته هذه أحست بفروغ صبره.

بللت شفتيها بلسانها، ثم قالت: «إسمع، لا يمكنني أن اعطيك جوابي الآن. عليك أن تمنحني بعض الوقت.»

«لن امنحك ثلاثة أيام هذه المرة. إنني امهلك إلى الغد... وأريد الجواب اثناء الحفلة.»

وكان هذا أمراً حسناً، بالنسبة إليها. فهي لن تذهب إلى الحفلة على كل حال، وهذا سيمنحها وقتاً اطول، على الأقل.

أومأت ببطء ثم تثاءبت: «أحب أن أذهب إلى الفراش، إذا لم يكن لديك مانع.»

فنظر إليها متفحصاً: «نعم، يبدو عليك النعاس.»

ثم نهض واقفاً، وحملها وكأنها طفلة، وذلك رغم احتجاجها، ثم صعد بها السلم إلى غرفة نومها حيث اوقفها على الأرض.

وعندما أضاء النور، أخذت هي تجيل نظراتها في أنحاء الغرفة. كانت مؤثثة بشكل جميل وعصري، فالستائر منقوشة بالأزهار بشكل بديع وتتلاءم مع غطاء السرير. وكانت بجانب النافذة أريكة منجدة بالقطيفة الوردية اللون وعليها كانت ملابسها مغسولة ومكوية وكان الجو دافئاً، ومع ذلك أشعل زاك مدفأة الغاز، ثم قال مشيراً إلى باب آخر: «إن حمامك هناك.» ثم

وضع يده على السرير وعاد يقول: «هذا حسن، فقد وضعت السيدة ميدوز البطانية الكهربائية عليه. وإذا احتجت إلى أي شيء.» والتفت إليها دون أن تتقابل اعينهما: «فغرفتي في نهاية الممر.»

ثم سكت وتقدم منها خطوة، ثم وقف وقال فجأة: «تصبحين على خير، يا تامي.» وقبل أن تجد الجواب، كان قد خرج.

أرهفت أذنيها ووقفت تستمع إلى وقع خطواته في الممر، ثم انفتاح باب وانغلاقه مرة أخرى. ومن ثم أخذت تروح وتجيء في غرفتها وقد تملكها القلق وعقدت ذراعيها على صدرها.

وإذا بها تجمد مكانها بعد أن داست على لوح خشبي قديم فتصاعدت قرقعته تحت قدميها. فقد خافت أن يسمع زاك ذلك فيعود إليها، وعندما لم يحدث شيء، سارت على أطراف اصابعها نحو الفراش، فأطفأت كهرباء البطانية ثم رقدت تحت اللحاف.

أغمضت عينيها في النهاية، ولكن النوم بقي وقتاً طويلاً يجافيها بعناد، ولكنها أخيراً رقدت بشكل مضطرب مليء بالأحلام المزعجة والتصورات الغريبة إلى أن تملكها كابوس بأنها تسقط في دوامة من المياه عند قدميها، فأطلقت صرخة مختنقة هبت بعدها مستيقظة.

كان ضوء النهار الشاحب يتسلل إلى الغرفة من خلال فتحة صغيرة بين الستائر، فنزلت من السرير، والتفت بالمعطف ثم تقدمت نحو النافذة حيث ازاحت الستائر واتكأت على عتبتها الواسعة، رأت في ناحية من الفناء خيمة

كبيرة مخططة باللونين الأبيض والأزرق. قد تكون هذه خيمة المرطبات للحفلة. إذا هي قالت نعم لزاك، فقد، بل من المؤكد، أن يعلن الخطبة أثناء الحفلة، وستعم البهجة القرية بأكملها لأجلها...

لكن ما الذي جعل زاك يعرض عليها الزواج؟ والصقت تامسن جبينها على زجاج النافذة البارد. الشيء الوحيد الذي كانت شاكرة له، هو قدرتها على مقاومته وإلا لأصبحا حبيبين... مثله مع سارا.

مثله وسارا... جالت هذه الفكرة في رأسها. سارا...؟ لم تكن تريد أن تفكر في صديقتها، ولكنها شعرت بها فجأة قريبة منها. ربما هذا هو السبب في تقرب زاك منها. فهو على الاغلب، شعر بالندم لهجره سارا فأراد أن يخفف من ذنبه هذا بالزواج منها هي بصفتها صديقتها الحميمة والتي تذكره دوماً بها. ولكنها تامسن لم تكن تريد أن تكون مجرد بديل عن سارا... فقد عاشت في ظلها زمناً كافياً...

على كل حال، ربما كان الأمر أكثر سخرية من هذا... ويكون السبب صدّها له ما جعله يعرض عليها الزواج أو شيء شبيه بهذا... وربما حديثه المعسول، ووعوده بالزواج نجحا مع فتاة أخرى هي سارا، فلماذا لا ينجحا معها؟ الفرق الوحيد هو أنه في حالتها هي يبدو وكأنه ينوي حقاً الزواج منها... معتبراً هذا، تبعاً لطريقة تفكيره الملتوية، ثمناً عادلاً لمزرعة ويذر تور.

ولكن، كلا. فمهما يكن مبلغ حبها له وحنينها إليه، فزواج دون حب هو، بالنسبة إليها، ثمناً باهظاً عليها أن تدفعه.

ولكنها كانت تتراجع خائفة من مجرد التفكير في مواجهته، ومن حسن الحظ أنه منحها هذه الساعات القلائل مهلة.

قفزت من السرير وخلعت بيجامته التي تلبسها ثم ارتدت ملابسها وقبل أن تستدير للذهاب ألقت نظرة على الفناء من النافذة متصورة نفسها تقف بجانب زاك في الحفلة التي ستقام هذه الليلة، بينما هو يعلن خطوبتهما... ولكنها ما لبثت ان استدارت مبتعدة إلى حيث هبطت السلم.

والذي كانت درجاته تقرقع مع كل خطوة، فحبست انفاسها كيلا يسمعها زاك. ولكن المنزل بقي ساكناً وترددت عندما وصلت إلى الردهة.

جوس... هل تتركه وترحل طالبة من ماتيو احضاره فيما بعد؟ أم تجازف يجعل زاك يشعر بذهابهما معاً؟ وبينما كانت تقف حائرة، سمعت صوتاً خفيفاً يصدر من أعلى فوق رأسها، فاندفعت إلى الباب ورفعت المزلاج ثم فرت هاربة.

* * *

كان ماتيو في الفناء وقد أسند عجلته إلى جدار الإصطبل.

«صباح الخير، يا تامسن هل أنت بخير الآن؟»

«نعم، شكراً أنا بأحسن حال.»

«هذا حسن كنت أعلم ان السيد ترنشارد سيهتم بك. ولكن لم يكن بك حاجة إلى الاسراع في العودة فقد قمت بكل الأعمال المتوجبة.»

«شكراً، يا ماتيو لا أدري ماذا كنت سأفعل بدونك.»

بدا عليه الارتباك، وقال: «على كل حال، أنا ذاهب الآن... إذ علي أن احضر كمنجتي وعباءتي للحفلة. سأراك، إذن، فيما بعد.»

فقالت بلهجة مترددة: «آه، حسناً، أنا لست واثقة في الحقيقة من أنني سأحضر الاحتفال.» ولكنه كان قد ابتعد فلم يسمعها.

لكن، ربما ستذهب في النهاية إلى عيد آيار (مايو)، على كل حال. وربما سيكون هذا أفضل لها، ذلك أنها باختفائها من بيته الساعة الخامسة صباحاً، قد يأتي زاك إلى بيتها في أية لحظة، لكي يعرف ما الذي يدور في ذهنها. وفي مكان الاحتفال ستجعلها كثرة الناس في أمان من الحاحه والناس جميعاً تنظر إليه.

صنعت لنفسها فنجان شاي وبعض الخبز المحمص وبعد أن اقفلت الباب الأمامي كيلا يفاجئها أحد، صعدت إلى غرفتها فاغتسلت، ثم اخرجت من الخزانة الثوب الذي ما زالت ترتديه كل عيد منذ كانت في الثالثة عشرة. وكان مصنوعاً من ثوب عرس والدة سارا الحريري، وكان لسارا في البداية ولكنها عندما اصبحت طويلة القامة ممتلئة الجسم، اعطته والدة سارا لتامسن ذات القوام الاصغر.

اخرجته من جوف الملاءة القديمة التي كان ملفوفاً بها بكل عناية، ثم ارتدته وبعد ذلك التفتت إلى المرآة لتلقي على نفسها نظرة شاملة.

كان الثوب ينسدل إلى كاحليها بثنيات مطرزة باللآلىء، وكان الكمان الطويلان الضيقان والياقة العالية تبرزان

نحولها. فقد أخذ وزنها ينقص منذ السنة الماضية، كما اصبح وجهها اكثر نحولاً هو الآخر. بدت عيناها، واللتان كانت الكآبة تظللهما في أغلب الأحيان بدتا غاية في الاتساع.

وعندما أخذت تصلح من ثنيات الثوب، رأت قرب الخصر المزق المرفو بشكل جميل. أخذت تنظر إليه... لقد كانت... ماذا؟... في الرابعة عشرة وكانت في الاحتفال السنوي المعتاد عندما جذبها زاك فجأة، وكان اكثر حيوية ونشاطاً من العادة، جذبها ممازحاً فتسبب في هذا المزق الضئيل في الثوب لقد قالت له عند ذاك: «لا بأس، إن رفوه سهل للغاية.»

نعم، أسهل كثيراً من رفو القلوب...

لبست حذاءها الأبيض الخفيف، وحملت شال جدتها القديم الجميل، ثم هبطت السلم.

•••

كان معظم القرويين هناك يروحون ويجيئون على العشب، وقد بدوا كالأقزام بجانب النصب الصواني والمسمّى (رجل لسكومب) فسارت تامسن بينهم، حيث أخذت تحيي وتتلقى تحيات الناس الذين عرفتهم طوال حياتها، وأخيراً انضمت إلى مجموعة من الفتيات والنساء الشابات جلسن حول النصب. وكن جميعاً في ملابسهن البيضاء التقليدية.

جلسن جميعاً معاً وأخذت ينظرن إلى زوجة كبير الضيعة، وقد بدا عليها الضيق أكثر من المعتاد، وهي تقود تلامذة مدرسة الأحد إلى بقعة محاطة بالحبال، فأجلستهم

فيها. وسحب أحد الآباء آلته الاكورديون وأخذ يعزف عليها مغنياً: «أنا لاحق بحبيبي.»

ولكن، بينما انتباه الآخرين كان موجهاً إلى اولئك الأطفال الرزيني الوجوه وهم يؤدون رقصات الدبكة القروية واحدة تلو الأخرى، كانت عينا تامسن تبحثان بلهفة بين الجموع. ولكن زاك لم يكن هناك. ربما أصبح متعالياً على مثل هذا الاحتفال كما اصبح متعالياً على كل شيء آخر... فهذا احتفال تقليدي تافه... حسب قوله. وهكذا أخذت تشعر بالراحة شيئاً فشيئاً مستمتعة بهذه الموسيقى المألوفة ودبكة الأطفال.

تلاشى التصفيق وران الصمت على الجموع حين جاء صوت موسيقى من وراء التلة لتظهر بعد ذلك فرقة رجال لسكومب للدبكة الشعبية يقودها ماثيو مرتدياً عباءة جده بتطريزها الرائع الجمال وهو يعزف على كمنجته ذلك اللحن الغريب الموحش والذي كان رغم كثرة سماعها له، يجعل شعر رأسها يقف. وبعد ذلك تبعهم ملك الوعول وقد وضع تاجاً على رأسه تتصاعد منه قرون الوعل المتشعبة.

منذ كانت تامسن طفلة صغيرة، كان جسمها يقشعر رعباً كلما دخلت قاعة الاحتفالات في القرية، ورأت هذه الملابس التقليدية معلقة في ركن خاص، بأشكالها الفضفاضة، ورؤوس الوعول المتدلية منها بقرونها الضخمة، تحدق فيها. فكيف بها الآن وهي ترى رجلاً بداخلها ما يجعلها أكثر تخويفاً وهو يتبختر بها بين صفين من الرجال الراقصين؟

قالت تامسن لفتاة بالقرب منها.

«إنه يبدو جيداً هذه السنة، أليس كذلك؟»

فابتسمت الفتاة وهي تتبادل معها نظرة ذات معنى: «حسناً، هذه ما تظنه جوانا بكل تأكيد.»

إذن، فملك الوعول هذه السنة هو دارن بيتس، خطيب جوانا. وفي التقاليد، ينبغي أن تكون هوية لاعب هذا الدور، والذي هو رجل مختلف في كل عام، ينبغي أن تكون سراً ولكن من المعتاد أن يعلم بذلك الجميع، كما كان معروفاً أن ملك الوعول سيختار حبيبته لتكون العروس.

أصبح عزف ماثيو أكثر ارتفاعاً، وإلحاحاً عندما خرج من بين فرقة رجال لسكومب رجل يرتدي ثياب الجندي حاملاً السيف والدرع. وشيئاً فشيئاً تقدمت الفرقة إلى الداخل مشكلة حلقة أخذت تضيق تدريجياً حول الوعل حتى لم يعد يبدو منه سوى الرأس والكتفين، ثم عاد البقية إلى الخلف ليقفز الجندي إلى الأمام، وإذ تملك تامسن ذلك الشعور المألوف من الخوف والبهجة معاً، ضرب هو الوحش، ثم وقف فوقه ورفع يده بالرمح الخشبي، والذي كان حقيقياً تماماً قبل خمسة آلاف عام، دون شك، وعندما شهق المتفرجون بشكل لا إرادي أهوى بالضربة النهائية المميتة. فارتجف الوعل وسقط ثم أخذ يتدحرج مرة بعد مرة إلى أن سكن جسده.

صاحت تامسن تخاطب جوان رافعة صوتها فوق ضجة التصفيق: «إنه رائع حقا، يا جوان.» فقد أدى دارين دوره بشكل ممتاز. فحتى الآن لم يحدث قط أن خطر ببالها أن لديه القدرة على التمثيل الطبيعي أكثر من واحدة من نعاجها.

«والآن، هيا اذهبن، يا بنات.»

وابتدأت السيدة دايفيز بدفعهن جميعاً نحو الحجر المنتصب، حيث أخذن وهن يكتمن ضحكاتهن، بتشكيل حلقة حوله. وإذ وجدت تامسن نفسها بين جوان وأختها الصغرى، إذا بملك الوعول والذي كان عاد ونهض مجدداً، إذا به يثب إلى وسط الحلقة. وكن جميعهن يمسكن بأيدي بعضهن بعضاً، بينما أخذ عزف ماثيو يتغير إلى نغم أكثر انخفاضاً وحنيناً.

أخذ الحيوان الضخم يتبختر في مشيته وهو يدور في الحلقة مرة بعد أخرى، ويقوم بالركض مهدداً، نحو كل فتاة بالدور، بينما كان رجال فرقة لسكومب مصطفين خلفه، ما جعل تامسن تتذكر فجأة أحد الصور البدائية في الكهوف لهذه الحيوانات، والتي رسمت لجلب الحظ في الصيد، ولكن في هذه الحالة كان الوعل هو الصياد وليس الفريسة.

وفجأة، إذا به يندفع نحوها كلياً وقد حنى رأسه الضخم وكأنه يريد أن ينطحها، فتفادته مبتعدة عنه وهي تضحك. ولكن بعد لحظة وهي تعود إلى المجموعة مرة أخرى، هجم عليها الوعل مرة أخرى، وهذه المرة فتح العباءة وجرها إلى داخلها حيث أخذت تقاوم للخروج بعنف.

كانت تشهق قائلة: «دعني يا دارين، أيها الغبي إنك ارتكبت غلطة، فأنا لست...»

وجاءها الصوت من الظلمة: «أسكتي يا تامي، من فضلك كفي رفساً واندفاعاً وإلا وقعنا نحن الاثنين.»

جمدت مكانها وقد تملكها الرعب ثم قالت: «دعني أذهب.»

«كلا طبعاً.»

وفجأة، أدركت أن من بين كل الأماكن في العالم، لا تريد أن تبقى في مكان غير هذا...

«هيا، يا تامي استمتعي بهذا الموقف.» وفي الضوء المعتم، تمكنت من أن ترى بياض أسنانه وهو يضحك منها. فهذا كله مجرد مزاح بالنسبة إليه.

فقالت: «كلا، لا أريد أن استمتع بذلك. تباً لك.»

وعندما أخذت تقاومه، اندفع كوعها إلى معدته فصرف بأسنانه وخفف من قبضة يده عليها فأخذا يتعاركان بشكل خطر إلى أن كادا يقعان وعند ذلك استطاعت هي أن تخلص نفسها وتندفع خارجة من ثنايا العباءة لتجد الجميع حولها يهتفون لها وضحكاتهم تتلاحق.

كان شعرها فوق وجهها، وعندما أزاحته عن عينيها، وجدت أن تنورة ثوبها قد ارتفعت إلى أعلى ساقيها، فأنزلته وسوّت من شانه وقد احمر وجهها خجلاً، وإذ لم تستطع ان تواجه ضحكاتهم ومزاحهم، ولت هاربة.

• • •

جاء، كما كانت توقعت. وأخذت تنظر إليه، مقاومة الرغبة في أن تستدير وتهرب مرة أخرى، وهو يتقدم مخترقاً الغابة تكاد الأشجار المتدلية تخفي قامته الطويلة.

أخذ يمعن النظر فيها صامتاً، لحظة طويلة ثم قال: «لماذا هربت؟» ولكن صوته كان رقيقاً.

فهزت كتفيها قائلة: «لا أدري.» ولإخفاء توترها، التقطت حصاتين وألقت بهما في الجدول.

«أرى أن مفاجأتي الصغيرة لك لم تعجبك.»

«كلا، في الحقيقة. وأظنني فقدت روح الفكاهة أو ما أشبه.»

«آه، يا تامي.» وتهالك بجانبها: «إنني آسف إذ سببت لك الاستياء، ولكن السيدة دايفيز كلفتني بذلك العمل الليلة الماضية. فذلك الأحمق دارين كان سقط عن دراجته البخارية، فتملكها القنوط. وكنت على وشك أن اخبرك بعد ان اتصلت بي، ولكن كان المفروض أن يبقى الأمر سراً، وعندما رأيتك في الاحتفال هذا الصباح. حسناً، لم استطع مقاومة اغراء جرك إليّ.»

ومنحها ابتسامة جانبية، ولكن عندما لم تتجاوب معه، تابع يقول باغراء: «يجب أن تعترفي بأن تمثيلي كان جيداً. لقد أكد ماثيو بأنني كنت أفضل ملك وعول رآه قط.»

«نعم، حسناً، دوماً كان ماثيو رجلاً بسيطاً سهلاً.» قالت ذلك دون رحمة، ولكنه رفض أن يسكت، فتابع يقول: «وعلى كل حال، فهذه كانت افضل طريقة لتكوني مرافقتي في حفلة الليلة.»

«إنني لست ذاهبة إلى الحفلة، يا زاك.» وأخذت تحدق في مجموعة من زهرة الربيع على الضفة المقابلة للجدول.

«لماذا لن تذهبي؟»

«لنفس السبب الذي جعلني أترك بيتك هذا الصباح.» والتفتت الآن تنظر إليه بثبات ثم تابعت تقول: «لا حاجة بك للانتظار حتى هذه الليلة لتأخذ الجواب. يا زاك، فأنا لن اتزوجك.»

«وهل هناك سبب معين؟»

«لأنك... لأنك لا تحبني.»

فقال ببطء: «فهمت. حسناً، أظنني لا استطيع أن الومك لظنك هذا... بينما حتى أنا لم استطع أن أراه في نفسي.»

أكانت كلماته هذه، أم ذلك التعبير في عينيه هو الذي جعل قلبها يخفق بجنون؟

«كلا، يا تامي، فأنا لم استطع أن افهمك.»

وتابع يقول عندما رآها تنظر إليه بحيرة: «فبعد أن كنت تلك الطفلة المثيرة للغيظ والسخط والضيق، والتي كانت مألوفة لديّ بقدر... نفسي ذاتها، أصبحت شابة مرغوبة جميلة.»

كان رأسها منخفضاً الآن، ولكنه، وبرقة زائدة، وضع إبهامه تحت ذقنها يدير وجهها إليه.

«في كل مرة كنت أراك فيها، كان يتملكني شعور غريب لم افهمه... حتى أمس عندما رأيتك متكورة على نفسك على تلك الصخرة تملكني رعب بالغ لأجلك، مدركاً فجأة أن حياتي لا يمكن أن تعود أبداً إلى حالتها الطبيعية بدونك، حتى في تلك اللحظة، لم أفهم كنه هذا الشعور.»

ابتسم بأسى: «وليلة أمس، أظن أن جسدي أدركه التعب أخيراً من أن يفهم عقلي ماذا حدث لي، فقلت لنفسي بثقة: «هيا، أيها الولد الغبي، لقد حان لك أن تعلم ما أريده بالضبط.

عند ذلك، عندما صددتني عنك، أدركت فجأة...»

وعندما سكت، لم تجرؤ تامسن على التنفس ثم قالت: «ما الذي أدركته؟»

«أنني أحبك... أحبك... وأنني أريد أن أصرخ أمام

العالم أجمع، بذلك. تزوجيني يا تامي وإلا جننت.» وأمسك بكتفيها بقوة لم تستطع معها أن تتحرك، ثم سألها بلهجة متوترة: «ماذا ستقولين؟»

«آه، يا زاك.» منحته أرق ابتسامة وما لبثت أن علمت الجواب والذي انقبض له قلبها: «كلا... لا استطيع.»

«لماذا؟» وهزها بخشونة: «إنك تصدقينني، أليس كذلك؟»

«نعم، يا زاك، فأنا اصدقك. ولكن... سارا.» ولفظت اسمها بصعوبة بالغة.

فنظر إليها بحيرة: «سارا؟ ولماذا تمنعك سارا من الزواج بي؟»

لماذا؟ إنه ما زال لا يستطيع أن يفهم. وعادت تشعر بتلك الكتلة في قلبها، فتراجعت مبتعدة عنه.

قال لها بسرعة: «اسمعي يا تامي... إنني أعلم تماماً كم كانت سارا تعني لك. ولكنك لا يمكنك أن تمضي بقية حياتك في حالة حداد عليها. فهي نفسها لا تريد لك ذلك، صدقيني.»

«كلامك صحيح، ولكن إذا كنت تظن أنني استطيع أن أتزوج الرجل الذي حطم قلبها...»

قاطعها بعجب: «ماذا؟ ما هذا الذي تتحدثين عنه؟»

فقالت وهي تجمع أذيال ثوبها حولها وتنهض واقفة: «أنت وسارا، طبعاً.»

لكنه أمسك بمعصمها بعنف يجرها ثم يجلسها مرة أخرى: «أخبريني عما تعنين، يا تامي.» وكان صوته هادئاً إلى حد خطر.

أجابت بخشونة: «لا بأس، إذا كان علي أن أقوله لك. لقد كنتما عاشقين، وقد وعدتها بالزواج، ولكنك رحلت دون أية كلمة، وهجرتها بقسوة. لقد تحطم قلبها، يا زاك.»

كان الغضب قد تلاشى من صوت تامسن ولم يبق سوى الألم والحزن.

«انظري إليّ.» وعندما استمرت تنظر إلى الأرض، أمسكها من كتفيها وهزها بعنف.

«انظري إليّ، تباً لك. لم نكن، أنا وسارا عاشقين، قط... على الإطلاق.»

فاحمرت وجنتاها غضباً: «بل كنتما كذلك، طبعاً. لقد أخبرتني بنفسها...»

«أقسم لك بشرفي، يا تامي، بأننا لم نكن عاشقين، فأنا لم أكن اعتبرها أكثر... أكثر من مجرد فتاة عرفتها طوال حياتي.»

«ولكن... ولكن تلك الليلة التي رحلت فيها...» سكتت فجأة وقد تملكها العجب رغم أنها ما زالت وفية لصديقتها بشكل عنيف.

فقال: «لا بد أنك كنت تعلمين تماماً أن سارا كانت فتاة خيالية، أليس كذلك؟ لقد كانت فتاة جميلة، ولكنها لم تكن تعيش في العالم الواقعي... بل كانت تعيش في الخيال حيث كانت ترى نفسها بطلة على الدوام... ولا أدري أية قصص ألقمتك إياها...»

سكت بدوره فجأة، وهو يعض شفته ولكن تامسن عادت تحدق إليه. كان كلامه صحيحاً... لقد أدركت ذلك الآن. فهمته، ولكن مع ذلك... حتى صباح يوم الزفاف... أثناء ذلك

المشهد الذي حدث بينهما في بيت سارا... كان هنالك شيء غير طبيعي بالنسبة إليها... كانت كأنها تقوم بدور تمثيلي أمام متفرجين غير مرئيين ولكن، مع ذلك...

وعادت تقول: «ولكنك كنت منعتني من الخروج معكما.» ورغم مرور السنوات، فقد تجلى في صوتها بعض الألم والمرارة اللتين كانت شعرت بهما حينذاك. «فأنت كنت قلت لسارا بأنك تريد أن تتنزه على الخيل معها فقط.»

«ماذا؟» وحدق إليها، وعند ذلك اكتسى وجهه بتعبير غريب، فقال مراوغاً: «نعم، حسناً، فأنت كنت دوماً فتاة مشاغبة، أليس كذلك؟»

ولكنه لم يكن ينظر في عينيها مباشرة.

فقالت ببطء وصوتها يرتجف: «لم يكن كلامها ذلك صحيحاً، أليس كذلك؟ فهي التي لم تكن تريدني أن أذهب معكما. لم تكن أنت من أراد ذلك... بل سارا، أليس كذلك؟»

«آه، يا عزيزتي.» قال ذلك وهو يلمس الوحشة والألـ العميقين في صوتها.

فرفعت عينيها تنظر في عينيه، وعندما أخذا يحدقان في بعضهما البعض، بدا وكأن الجو حولهما شحن بالكهرباء.

فقال زاك وهو يبتسم: «آه، يا حبيبتي.»

عاد ينظر إليها طويلاً ما أخذت معه ترتجف خجلاً ورفعت بصرها إليه. كانت خطوط ملامحه القاسية قد اكتست رقة زائدة بينما كان يبتسم لها. ومد يده من فوقها يقطف زهرة أخذ يمر بها على شفتيها، ثم غرسها في شعرها الناعم وهو يقول: «هذه زهرة لأجل عروس ملـ

الوعول.» وجعلتها النظرة التي رمقها بها تذوب هياماً، ثم نقر بإصبعه على أنفها قائلاً: «حان الوقت للذهاب.»

«آه، ولكنني أريد أن أبقى هنا طوال النهار.» لكنها عندما تثاءبت وأخذت تتمطى، هز رأسه بحزم: «كلا، فسأعيدك إلى البيت. لقد تركت جوس يروح ويجيء في الردهة، مقتنعاً تماماً بأن شيئاً هائلاً قد حدث لك.»

منحته ابتسامة هادئة: «هذا صحيح، ألم يحدث لي شيء هائل، فعلاً؟ ليس كل يوم يختطف ملك الوعول عروساً.»

«لا تذكريني، فقد كان ذلك التقليد عبئاً ثقيلاً تماماً عاندتني فيه العروس بعزيمة بالغة.» قال ذلك ضاحكاً، ولكنه ما لبث أن قال بجد: «وعلى كل حال، أريد أن آخذك إلى مدينة توربي عصر هذا اليوم.»

فأجفلت: «آه، أتعني...؟»

«نعم، لكي تقابلي أبي.» ولم يكن الآن ينظر إليها تماماً: «إنه متلهف تماماً لعقد صلح معك.»

ترددت تامسن لحظة واحدة، ابتسمت بعدها له قائلة: «نعم، طبعاً يا زاك. يسعدني جداً أن اقابله.»

وعندما مرت بيدها على شعرها تسوي من شأنه سقطت منه الزهرة التي كان زاك غرسها فيه، في حجرها حدقت إليها لحظة ما لبثت بعدها أن رفعت يدها إلى فمها وهي تشهق بذعر.

«آه، كلا... إنه سيجن.»

سألها باستغراب: «من تعنين؟ ماذا حدث؟»

فقالت وهي تقفز واقفة بسرعة: «برايان. آه، لقد كنا جالسين عليها طوال الوقت.» وأخذت تصيح نادبة: «إنه

سيظن إنني فعلت ذلك عمداً، وسأنتهي في السجن، أو إلى شيء مريع.»

وعندما صدرت عنها ضحكة متوترة، رأت زاك ينظر إليها بعجب، فقالت وهي تشير إلى الأزهار المسحوقة: «إنها أزهار (خصلات السيدة الصيفية).»

«ماذا بشأنها؟»

«إنها نادرة جداً إلى درجة أنها قد انقرضت عملياً.»

وأضافت نائحة: «إن هذه البقعة التي تنمو فيها معتبرة الآن تابعة للعلم.»

«حسناً، يوجد منها الكثير على طول جدول المياه هنا. وبرايان الذي تتحدثين عنه، لن يهتم بفقد هذه الزهرات القلائل.»

وللمرة الثانية، رفعت تامسن يدها إلى فمها وهي تنظر إليه وقد اتسعت عيناها بشعور الذنب: «كنت أريد أن أخبرك، ولكنني نسيت، ليس بإمكاني أن استغل الغابة بعد الآن، فهم سيضعون أمر حمايتها وستكون منطقة محمية.»

«ماذا؟ لن يحدث فيها «لعبة الحرب.» بعد الآن؟»

«ليس بالنسبة إلى الغابة.»

فقطب جبينه قائلاً: «هذا يعقد الأمور، وإذا لم استطع استغلال الغابة...»

فسألته بقلق: «إن هذا... هذا لن يعطل العمل، أليس كذلك يا زاك.»

أجاب مفكراً: «حسناً، إنني غير واثق...» ولكنه عاد فانفجر ضاحكاً وهو يقول: «آه، يا عزيزتي، يجب أن لا اغيظك أكثر من ذلك، فهذه المسألة لن تعطل العمل طبعاً...

فأنا لا يهمني ولو كان هناك مئات من اوامر الحماية ملصقة في هذا المكان. وعلى كل حال اما أن نقيم الالعاب حول المكان وإما أن ننقل المجموعات بطائرة الهيلوكوبتر من فوقه حتى ان هذا سيمنحهم مزيداً من البهجة.»

«إذن فما زلت تريد أن تتزوجني... حتى بدون غابتي الغالية؟» ونظرت إليه بطرف عينها بمكر.

«حاولي فقط أن تمنعيني.» وابتسم لها بشغف.

www.elromancia.com
مرمورية